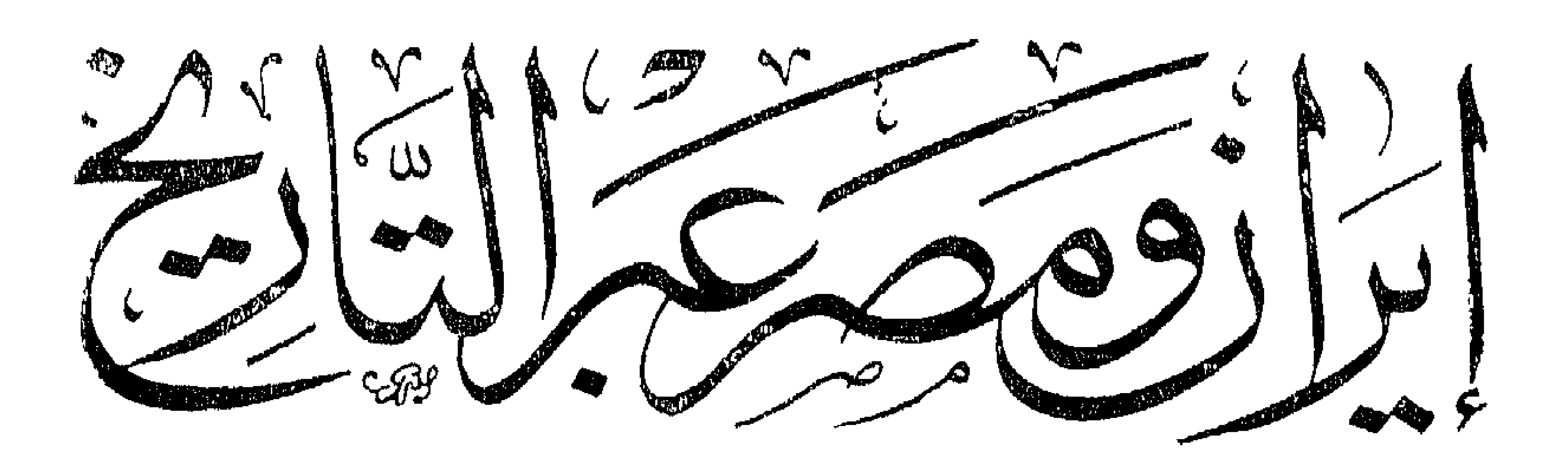


إيران ومصر عبر التاريخ

بحث قدم بالفارسية إلى المؤتمر العالمي للدراسات الإيرانية
الذي انعقد في أكتوبر من عام ١٩٧١ في مدينة شيراز بإيران بمناسبة
الاحتفال بمرور ألفين وخمسمائة عام على تأسيس الدولة الفارسية

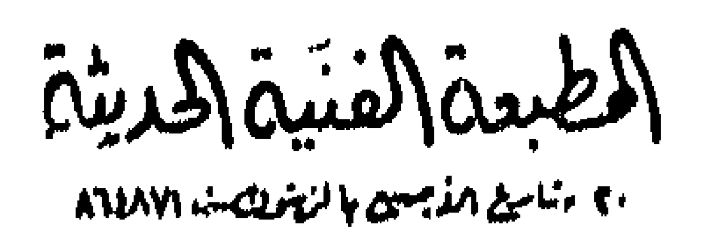
دكتور حسين مجيب المصري



بحث قدّم بالفارسيّة إلى المؤتمر العالمى للدراسات الإيرانيّة
الذى انعقد فى أكتوبر من عام ١٩٧١ فى مدينة شيراز بإيران بمناسبة
الاحتفال بمرور ألفين وخمسمائة عام على تأسيس الدولة الفارسيّة

دكتور حسين مجيب المصرى

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد


المطبعة الفنية الحديثة

إيران ومصر قبل الإسلام

من الحق قولنا إن الصلة بين إيران ومصر منذ الزمان الغابر إلى العصر الحاضر، تشكل فصلا ذا بال من فصول التاريخ، ويتألف منها موضوع حقيق أن يكون مناط اهتمام كثير ممن أخلوا للبحث ذرعهم، ولذلك أكثر من سبب. فمبلغ علمنا أن العلماء لم يوفوه بعد حقه عليهم من العناية، كما أن حقائق متصلة به مازالت من مشتبهات الأمور التي تمس الحاجة فيها إلى الإيضاح والإفصاح. وفي أشتات كتب التاريخ أخبار طوال تتجافى عن الصواب ولا تثبت على النقد. أما أقوال الباحثين والمحققين في هذا الصدد فمتعارضة متضاربة.

وجدير بنا قبل الخوض في هذا أن نقول إن الصلات تنعقد بين هذين البلدين منذ الزمان الأطول، ومازالت قوية العرى ماثلة المعالم إلى اليوم، بل وإلى الغد البعيد. وكان بدء تلك الصلات الوثيقة حين كان هذان البلدان مهدين للحضارة، وكان المصريون والإيرانيون يحملون الشعلة إشراقة للحضارة في دياجير العالم القديم. فلا عجب إذن وهذا شأنهم، أن يقف ملوكهم بعضهم من البعض موقف المتنافسين المتحاسدين، ويوقنوا بأن صلة، أية صلة، لابد أن تربطهم. وظهرت تلك الحال في عهد الفرس الكيانيين، حين قويت شوكتهم وازدهرت حضارتهم ورأى ملوكهم من تمام عظمتهم أن يتسعوا في الفتوح.

ولا أدل على ذلك من أن الملك قورش شاء أن يغير مجرى التاريخ ويرقم اسمه على جبين الدهر، فما قنع بأن يكون من الغزاة الفاتحين، بل عقد عزمه على أن يرسى للمدنية في الأرض أساساً، ويرفع الظلم عن أقوام طالما رزحوا تحت وطأة من عسفوهم وخسفوهم وحملوهم ما يكرهون. ولذلك عرف عند قديم الشعوب بالمنقذ[1].

---

(١) عبد الله رازى : تاريخ ايران ، ص ١٠ (طهران ١٣١٧) .

وقد تلا خلفاؤه تلوه ، واتخذوا من مبادئه وسياسته مثالا يحتذى ، ورأوا من الخير أن يأخذوا بذلك أنفسهم ولا يحيدوا عنه . ويؤيد هذا أن قورش قبل أن يفارق دنياه ، استدعى ولده قمبيز وبذل له النصح وأكد عليه الوصية ، راغباً إليه أن يكون أميناً على الوديعة مضطلعا بما أسند إليه وعول عليه فيه ، ثم أمره أن يفتح مصر من غير ما تردد ولا تريث[1] .

ومما ينهض دليلا على ما ذهبنا إليه آنفاً ، من أن الملوك الأقدمين كانوا يتنافسون ويتحاسدون ، ويريد كل منهم أن يكون السلطان فى الأرض له دون سواه ، فاستحثهم هذا على أن يبسطوا ظل عرشهم على بلاد غيرهم ، أن قورش كان قد فتح فى مدة قصيرة لا تزيد عن أعوام عشرة ، بلاداً ظلت للحضارة مركزاً عدة قرون ، إلا مصر لم يفتحها[2] فأدرك أنه لم يحقق المنشود من غايته والمعين من خطته . فكان حقاً أن يرمق مصر بنظرة طامع فيها متلهف عليها ، ولا غرو فهى خصبة تربتها عريقة مدنيتها تطبق الآفاق شهرتها . فصح منه العزم على أن يدخلها فى حوزته ليجمع بين أعظم حضارتين ويوحد أعرق مملكتين . فضلا عما يذكر من أسباب أخر ، لا ندرى إلى أى مدى يمكن اعتبارها أساسية بالنسبة إلى فتح مصر .

وما اعتلى قمبيز العرش وهو على ذكر من نصيحة أبيه ووصيته ، حتى هيأ لفتح مصر أسبابه وتذرع بذرائعه . وفى هذا الصدد رواية تنسب إلى هيرودوت ونرى ضرورة ذكرها لأن قدراً منها يشير إلى وجود صلة بين البلدين ، كما يتيح لنا ذلك أن نفرق بين هذه الصلة السابقه وأخرى لاحقة .

يقول هيرودوت بماخلاصته أن قمبيز أوفد على أمازيس فرعون مصر سفيراً ليطلب يد ابنته ، وكان ذلك بإيعاز من كحال مصرى مقيم فى إيران . وقد طاب له المقام طويلا فى بلاط قورش بعد أن طلب قورش إلى فرعون مصر أن يرسل إليه كحالا نطاسياً مصرياً . وارتحل الكحال إلى إيران مرغما مكرها ، وحز فى نفسه أن يزعج عن

---

(1) Gardiner: Egypt of the Pharaohs. p. 362 (Oxford 1961).

(2) Le Bon: Premières Civilisations. p. 704 (Paris).

وطنه ويقيم فى أرض غريبة . قيل واهتدى إلى حيلة يشفى بها غيظه من فرعون الذى أبعده عن مصر وشرّده ، فزين لملك الفرس أن يطلب يد الأميرة المصرية وهو موقن أن أباها سوف يرد ملك الفرس خائباً غاضباً ، مما يفضى حتما إلى قيام الحرب بين العاهلين العظيمين . أما ما قيل فى سبب رفض فرعون لملك الفرس صهراً ، فهو أن ملك الفرس لن يعتبر ابنته زوجا له بالمعنى ، بل سوف يجعلها فى عداد حظاياه ، وهذا ما لا يرتضيه لابنته . وأراد فرعون الخلاص من هذا المأزق ، فجنح إلى المكر والخديعة . واستقدم إحدى بنات الفراعنة السابقين وأمر ، فألبست فاخر الثياب وحليت من أجمل الحلى ، ثم أرسلت إلى قمبيز . وما مضى على ذلك طويل زمان حتى أوقفت الأميرة المصرية قمبيز على حقيقة أمرها ، وإنما أرادت الانتقام من أمازيس الذى كان قد حث المصريين على خلع طاعة أبيها ، ثم تمكن من قتله . وكبر على قمبيز أن يخدعه أمازيس ، فتغيظ وتنمر . ورأى أن هذا الغضب لن يسكت عنه إلا إذا ناشب فرعون مصر الحرب .

هكذا يعلل هيرودوت غزو الفرس لمصر . وأياما كان ، فليس المقام مقام تأييد ولا تفنيد ، لأن ذلك قد يخرج بنا عن نطاق الموضوع . ولب هذا الموضوع هو تلمس الصلات بين مصر وإيران ، وما من ريب فى أن رواية هيرودوت تفى بالحاجة وتؤيد وجود تلك الصلات.

ولهذا المؤرخ قولة أخرى يؤخذ منها أن المصريين يعتبرون قمبيز منهم ، لأن قورش تزوج ابنة أمازيس ، كما أن أمازيس أرسل ابنة فرعون سابق إلى قورش. ويبادر المؤرخ اليونانى قائلا إن هذا لا أساس له من الصحة ، لأن قوانين وتقاليد الفرس لا تجيز الجلوس على العرش لابن زوجة لم يعقد قرانها .

ويضيف قورش إلى كل هذا قوله إن امرأة فى بلاط قورش مدحت إحدى نسائه وذكرتها بكل جميل ، ولكن شكت الملكة من أن قورش يطيل فى الثناء على امرأة مصرية من نسائه ، فأسرها قمبيز فى نفسه وقال لأمه إنه إزاء ذلك سوف يجعل عالى مصر سافلها حين يبلغ مبلغ الرجال[1] .

---

(١) پيرنيا : ايران باستان ص ٤٨٤ — ٤٨٦ جلد ١ (طهران).

ويستبين من كل ما أسلفنا ، أن الروايات التى دارت على الألسنة وتناقلها القوم كابرا عن كابر قد اختلفت وليس عجيبا أن تختلف . غير أن هذا لا يغير شيئا فى جوهر الحقيقة التى ننشدها ، بل على العكس يؤيدها بما هو جائز عقلا وليس حتما أن يجوز واقعا ، كما أنه تمهيد يهيء لاستطلاع الثابت المؤكد من حقائق التاريخ ، تلك الحقائق التى تعتمد على شواهد وأسانيد لا تحتمل شكا ولا تأويلا .

ثم يفضى بنا ذلك إلى الدخول فيما هو أقرب إلى الواقع التاريخى الذى ينعقد الإجماع عليه أو يكاد ، وعليه فنحن نتدرج فى إدراك تلك الصلات من غير المحتمل إلى المحتمل ثم الأكيد .

وولّى قمبيز وجهه قبل مصر على رأس جيش عظيم حتى وافى مدينه غزة . وفيها انضم إليه من انفضوا من حول فرعون وخذلوه . فقوى بذلك أمره على حين ضعف أمر عدوه . كما وفق إلى استمالة شرذمة من أصحاب الرياسة عند العرب فحالفوه على مد الغزاة بقرب الماء التى يحملها ما لا يحصى كثرة من الإبل . وهذا ما مكن جنود قمبيز من اجتياز الصحراء بين فلسطين ومصر .

وبينما كان القتال منتشبا بين الإيرانيين والمصريين ، مات أمازيس وخلفه بسماتيك الثالث ولم يكن له من الجدارة والشجاعة ما كان لسلفه (١) .

ثم دارت الدائرة على المصريين الذين تعلقوا بأذيال الفرار ملتمسين موئلا فى عاصمتهم منف ، ولكن سرعان ما سقط موئلهم وذهبت ريحهم .

أما وقد دانت مصر لطاعة قمبيز واطمأنت به الحال فيها ، فجدير بنا أن نتمثل شخصيته التى درج المؤرخون على طبعها بطابع خاص يميزها من غيرها . فعند هيرودوت ومن لف لفه من المؤرخين الآخذين عنه أن قمبيز كان ملكا خشن الجانب صعب المراس بلغ المدى فى شراسته وشكاسته ، لا يقر قراره إلا برؤية دماء الأبرياء وهى تراق ، وذلك لاختلاط عقله وفساد تمييزه .

ومن الباحثين من ينفى الجنون عن قمبيز ، وينسب هذا فرية إلى المؤرخ

---

(1) Huart; La Perse Antique. p. 56 (Paris 1925).

اليونانى هيرودوت الذى كان معادياً للفرس فما أنصف فى حكمه ولا توخى الحق فى قوله. كما يرى أن أمر هذا الملك بذبح عجل أبيس الذى كان المصريون يقدسونه من الدعاوى التى تعدم الدليل على صحتها (١)

وعليه فملك الفرس لم يكن رأس البغاة والطغاة ولا أظلم الظالمين ، ولم يختلط عقله ولا أمعن فى جوره فآذى المصريين فى أدق شعور لهم وهو شعورهم الدينى بقتل معبودهم ، وما خرّب البلاد وظلم العباد كما أجمع على ذلك جميع المؤرخين الذين أخذوا عن المؤرخ اليونانى هيرودوت .

ولا نرتضى هذا الرأى بلا تحفظ ، وتحفظنا باعثنا على تلمس الدليل عليه فى مظانه ، ونحن واجدون ذلك فى النصوص المصرية القديمة .

فيستدل من هذه النصوص على أن قمبيز بذل وسعه فى أخذ المصريين بالملاينة والمهادنة ، وتوسل بذلك إلى إرضائهم واستمالتهم ليظفر منهم بولائهم ومحبتهم . وقد جمع عديدا من العمال والفنانين وأوفدهم إلى إيران (٢) .

مما ترتب عليه لقاء بين الفن المصرى والفن الإيرانى، وتأثير وتأثر لاشك فيهما . ومن حيث كان الفن مظهراً من هم المظاهر الحضارية ، كان قمبيز موفقاً فى إيجاد السبيل إلى عقد صلة هامة بين حضارة مصر وإيران . وملك يقدم على مثل هذا الصنيع لن يكون إلا محكم العقل حصيف الرأى .

كما أشرك جيش مصر وأسطولها فى القتال مع جيش الإيرانيين وأسطولهم، فخاض الفريقان المعارك ضد اليونان ، وتآزر هؤلاء فى حرب كان المتوقع أن تغير مجرى التاريخ .

وأصلح قمبيز الطرق فى مصر بتمهيدها وشقها ، وأمر بسن القوانين لتنظيم العلاقات بين الناس ، وثبت أنه بسط رعايته على المؤسسات العلمية فى البلاد .

وإذا ماتجاوزنا هذا الإجمال إلى شىء من التفصيل ، قلنا إن قمبيز عرف

---

(1) Olmstead: History of the Persian Empire. p.89 (Chicago 1948).

(2) Posener : La Première Domination Perse en Egypte. p. XII (Le Caire 1936).

كيف يتحبب إلى المصريين من خلال الدين وهو أعز ما به يعتزون ، فقد سمّى نفسه ابن رع ، ورع فى الذروة من إجلال أهل مصر ، والمنزلة التى لا تسامى مما يقدسون ويحبون . وهذا واضح الدلالة على أنه خبير بأصول السياسة عليم ببواطن الأمور . كما ينفى عنه أنه أهان المصريين فى عقيدتهم إمعانا منه فى إذلالهم والقسوة عليهم .

ومادمنا فى هذا الصدد والشىء بالشىء يذكر ، فلنعرض لخبره المشهور مع العجل أبيس . فمن المعلوم عند المؤرخين أنه ذبح هذا العجل ، على حين يستخلص من نص مصرى قديم فى منف ، أن ذلك العجل المقدس دفن فى احتفال عظيم يليق بمكانته العظيمة فى النفوس . ووقع هذا فى العام السادس من حكم قمبيز ، وكان الملك قد أمر بصنع تابوت للعجل فى الروعة آية . وعند هيرودوت أن ملك الفرس قتله ، ودفنه الكهنة فى الخفاء .

وفى رأى أن هذا باطل لا يعول عليه ، لأن العجل الذى نفق فى عهد قمبيز لم يدفن خفية ، إلا أن عجلا آخر نفق فى العام الرابع من حكم دارا . وليس فى الإمكان أن يكون قمبيز هو الذى قتله [1] .

وإذا عقدنا الموازنة بين كلام هيرودوت وغيره من المؤرخين وما ورد فى الكتابات المصرية ، فجدير بنا أن نقول إن ما جاء فى تلك الكتابات لابد أن يكون صوابا .

ومما ورد كذلك فى النصوص المصرية القديمة ، أن عدداً عظيما من الإيرانيين صحبوا قمبيز فى مقدمه إلى مصر وأقاموا على أنهم جالية ، أى غرباء جلوا عن وطنهم . واختاروا معبد « نيت » مكانا لإقامتهم . وما اتصل ذلك بعلم ملك الفرس من أمرهم ، حتى كرهه منهم ، وأغضبته هذه الإساءة إلى شعور المصريين الدينى بانتهاك حرمة معبد له القداسة من معابدهم . وسرعان ما أصدر الأمر إليهم بمزايلة المعبد ، فطووا منه بساط الإقامة ، واسترده الكهنة ليعاودوا فيه سيرتهم الأولى بإقامة شعائر دينهم .

---

(1) Posener: La Première Domination Perse en Egypte. p. 117 (Le Caire 1936).

وجاء فى بعض الوثائق المصرية القديمة أن قمبيز مضى إلى الوجه البحرى ليزور معبد الإلهة (نيت) وهناك خر ساجدا وقدم قربانا عظيما ووقف الأوقاف على هذا المعبد . وفى وثيقة أخرى أنه تطهر فى ذلك المعبد . وفى ثالثة أنه قدم إلى أوزيريس الخبز والجعة والعجول والطيور . ولدينا وثائق أخرى يدور محتواها فى هذا النطاق ، ولا ضرورة للإشارة إليها . وحسبنا هذا القدر من مضمونها فى إقامة الدليل الأكيد على أن قمبيز لم يكن فى معاملته للمصريين على ما وصفه به المؤرخون ، وما كان صاحب هذه الصورة المستبشعة التى طالما تمثلناها له .

وخاتمة القول فيه أنه تزيا بزى المصريين مصانعة ومجاملة منه لهم ، كما قيل إنه رد امرأة أمازيس فرعون مصر إلى قومها معززة مكرمة . وهذا كله غاية الغايات فى التسامح والكرم . ولئن ظلم المؤرخون قمبيز فقد أنصفته النصوص المصرية القديمة .

وسياسته تلك تذكرنا بما ورد فى كتابات دارا من أن أهورا مزدا أى إله الخير فى الديانة الزرادشتية أمر ملوك الفرس باستمالة الشعوب ورجال الدين جميعا فى أرجاء الدنيا ليتحدوا ويقوم العدل ويستتب السلم بينهم .[1]

أما دارا فقدم إلى مصر عام ٥١٧ قبل الميلاد بعد أن خلع أرياند والى مصر من قبل إيران الطاعة وسيطر على جنود البر والبحر وتأهب للاستيلاء على ليبيا ، وقد أخذ دارا على يد واليه المتمرد وقتله .

ونهج دارا نهج سلفه قمبيز فى احترامه لديانة المصريين . فأظهر لرجال الدين كل آيات التوقير والتبجيل .

ويقال إنه شارك المصريين فى أحزانهم لنفوق عجلهم المعبود أبيس ، وشيد للإله آمون معبداً . وفى عهده استبحر فى مصر العمران وكان العصر عصراً ذهبياً ، وأولى فن النحت والعمارة عظيما من عنايته ، وأقام ورمم المبانى العامة فى وادى النيل وواحة آمون . وقمين بالذكر أن السواعد الإيرانية أنجزت كل هذا

(1) Hass: Iran. p 9. (Oxford 1946).

مع السواعد المصرية ، وما من ريب فى أن ذلك يعتبر مظهرا للتعاون وامتزاجا لفنين عند شعبين .

ولقد بلغ من رغبة الإيرانيين فى التمصّر إن صح هذا التعبير ، أن يعبدوا آلهة المصريين ويكتبوا بخطهم [١] .

وهذا من الدليل على عمق تأثرهم بهم ولا ريب .

ورأى دارا أن يجامل أهل مصر فى دينهم ، فأمر أحد كهنتهم بترميم معابدهم وأقام معبداً فى إحدى الواحات .

ووقع ذلك من نفوس المصريين موقع الرضا ، فأعتبروا دارا واحداً من فراعينهم العظام .

وكان للزراعة نصيب من عنايته ، فأدخل على الزراعة المصرية نظام الرى بالقنوات الإيرانية المعروفة بكاريزها . فأخذ المصريون ذلك عن الإيرانيين ، ولا بد أن يكون ذا أثر فى زراعتهم وحياتهم . وهذا كله مؤيد لتبادل الشعبين ما تصلح به أمورهم .

ويندرج تحت ذلك أن هذا الملك كان على بينة من أهمية العلوم كأهم مقوم من مقومات الحضارة . وهو يبدو واقعيا عمليا فى تحقيق نفع العلم للناس ، فاهتم بعلم الطب خاصة ، ورعى جانب الأطباء ، فأصلح مدرسة للطب ملحقة بمعبد « نيت » كانت قد تخربت فى عهد قمبيز .

وهنا وقفة لابد منها ، وهى أن اهتمام دارا بعلم الطب عند المصريين كان أعظم من اهتمامه به عند الإيرانيين ، فما من دليل على أنه وقف موقف المشجع المؤيد من الأطباء الزرادشتيين [٢] .

ولا نطوى الحديث عن علم الطب الذى جعله دارا مناط عنايته قبل أن

---

(١) پيرنيا : ايران باستان ، ص ٥٦٦ جلد ١ (طهران) .

(2) Elgood : A Medical History of Persia. p. 22. (Cambridge 1953).

نذكر ما ارتبط به وأفضى إليه، فكان ما بينهما ما يكون بين اللازم والملزوم. وذلك أن هذا العلم مست فيه الحاجة إلى الوسيلة التى تؤدى إلى الغاية ، فاستوجب الكتب التى تتألف منها مكتبة .

ورأى ذلك الملك أن يزود مصر من الكتب بما يشيد فيها داراً للكتب . وهذا خبر نستقيه من كتابة نقشت على قاعدة تمثال لمصرى يسمى أوزاهاريس نيتى [1] .

فقد ارتحل هذا الرجل من مصر إلى إيران فى عهد قمبيز ، بيد أن دارا أوفده إلى مصر ليزود مكتباتها بالكتب . وجاء فى النص قوله : ملك الملوك . ملك مصر العليا والسفلى . الملك دارا . أمرنى بالعودة إلى مصر . إنه ملك مصر العظيم وملك بلاد أخر . وهو يقيم الآن فى عيلام . وكانت مهمتى إعادة بناء قسم من معبد نيت الذى تقوض وانهدم. ومضى الأسيويون بى من بلد إلى آخر. إلى أن صدر أمر الملك بترحيلى إلى مصر . وامتثلت أمره . فزودت المكتبات بالكتب . ووجهت شداة العلم إلى المبانى . ووكلت أمرهم إلى رجال من ذوى الحنكة. كما سددت حاجتهم إلى اللازم من أدواتهم وفق ما جاء الوصف فى كتبهم. وكان هذا ما أمر به الملك. لأنه كان واسع الخبرة بما لعلم الطب من عظيم الفائدة. ورغب فى أن يكون منقذ العليل من الموت .

ويلوح من كلام هذا المصرى الذى قدم من إيران مضطلعا بتلك المهمة صادعا بما أمر ملك الفرس ، أن الاطلاع على الكتب فى المكتبات كان معروفا فى إيران ، ولعل دارا شاء أن يعممه فى مصر كذلك بكيفية لم تكن مألوفة عند المصريين .

وهذا فضل للملك الفرس على العلم ، ومظهر جلىّ لتبادل الخبرة العلمية بين البلدين. كما يشير إلى أنه لم يكن متعصباً لعلماء قومه على غيرهم . وكان موقنا بأن العلم ليس حكراً لقوم دون غيرهم، أو أنه رأى فى مصر ضرورة ملحة تدعوه إلى

---

(1) Farrokh (T) Saremi: History of Books and the Imperial Libraries of Iran. pp. 16,17 (Tehran 1968).

فرط اهتمام بعلم الطب رغبة منه فى إصلاح حال تمس الحاجة إلى إصلاحها .

أما أهم عمل لدارا فى مصر بوأه منزلة فى التاريخ، فهو شق قناة تصل النيل بالبحر الأحمر. وكان لتلك القناة وجود فى عهد فرعون يسمى نخاو، وقد شقها، غير أنها طمرت على مر السنين ولم يبق لها من أثر .

ويقال إن نخاو هذا أراد فى نهاية القرن السابع قبل الميلاد إعادة فتح قناة كان أحد الفراعين قبله فتحها ثم غمرتها الرمال، غير أن أصحاب مشورته ثنوه عن عزمه هذا مخافة أن تفيض مياه البحر الأحمر على مصر بعد فتحها. وفى رواية أخرى أنه انصرف عن نية حفرها للباهظ من تكاليفها (١) .

أما أن يضطلع دارا بإعادتها إلى الوجود، فبرهان قاطع على أن ملكين أحدهما مصرى والآخر إيرانى قد اشتركا فى القيام بنفس المهمة ليتكامل جهدهما ويتناصفا فضلهما . وكان السابق إلى الفهم فى تلك الحال أن يربأ ملك الفرس بنفسه عن أن يكون متمما لعمل فرعون تكبراً منه واستعلاء ، فالعهد بالغالب أن يهدم مابناه المغلوب ، لا أن يعمل على إصلاحه أو إحيائه .

ولدينا نصوص قديمة تشير إلى ما كان من صنيع دارا، وهى منقوشة فى عمد على ضفة القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر. ففى كل عمود كتابات بخط مسمارى ومصرى قديم . ويتضمن أحد النصوص ذكراً لأهورا مزدا إله الخير فى الديانة الزرادشتية وهو إله قوى قدير ، وإشارة إلى إبحار أسطول مصرى إلى إيران .

وهذا ما يؤيد أن تلك القناة قد أدت الغاية المنشودة منها فى عهد ملك الفرس فربطت بين مصر وإيران. وفى نص آخر أن الإلهة « نيت » ولدت دارا والإله « رع » بوأه مجلسه على العرش ووهبه من لدنه قوة لينجز مهمته ويدحر أعداءه. وفى هذا نظر، لأنه يدل على وثاقة صلة دارا بالمصريين وما يعبدون ، وأنه من نسل إلهتهم، ويوليه أحد الآلهة عليهم من أجل خيرهم وصلاح حالهم .

وفى كتابة على عمود آخر «إن دارا أمر بحفر نهر Giru من نهر مصر ، إلى

---

(1) Nouri : Iran's Contribution to the World Civilization. p. 51 v. 2 (Tehran 1971).

نهر Amer الذى ينبع من فارس ، ولقد حفر كما أمرت »(١) .

ومن المعلوم أن تلك القناة تربط النيل ببحيرة التمساح مجتازة البحيرات المرة إلى خليج السويس وكان عرضها أربعين مترا أو ما يقرب .

وفى إحدى الوثائق قول دارا إنه تلقى الأمر بشق القناة(٢) فكأنه انصاع لوحى إلهى ، وهذا ما يضفى على تلك القناة قداسة فيما يرى .

وبعد وفاة دارا خلفه أحشيرش ، ووقع فى مصر ما وقع بعد موت قمبيز وكان السبب فى مقدم دارا إليها ، وثار من ثار وادعى لنفسه ملك مصر ، فخف إليها احشيرش بعسكره وتأتى له أن يكبح جماحه ويطمس معالم فتنته ، ولكن لا علم لنا بكيفية الأمر كما ألمع إلى ذلك بيرنيا فى كتابه « إيران القديمة ».

يقول التاريخ إن احشيرش لم يسر فى المصريين سيرة دارا وقمبيز ، فما حرص على الظفر برضاهم عنه ولا ألقى بالا إلى ضرورة محبتهم له . فما ابتنى ولا رمم المعابد ، بل عوَّل على الإفادة من الجنود المصريين فى حربه مع اليونان ، فاستعان بهم فى معركة سالاميس التى أبلى المصريون فيها بلاء حسنا . غير أن هذا الملك عين المصريين موظفين فى الدولة(٣)

وما عرفنا عنه أنه أخزى المصريين فى آلهتهم . كما أن أخاه وفد على مصر وأضاف إلى اسمه الفارسى اسماً مصرياً ولم يفد احشيرش من أهل مصر كجنود ليس إلا ، بل أفاد منهم عمالا وبنائين . ولا غرو فقد كان شديد الولوع بتشييد العمائر وبناء القصور ، فتحين الفرصة لإيفاد حذق المصريين وتجربتهم إلى إيران فأقاموا فيها ما أقاموا من روائع فن العمارة . وما أقاموا المعابد بل جواسق تمتاز بطراز خاص ، سقوفها خفيفة وأعمدتها كثيرة . وفيها كان الملك يستقبل العظماء والسفراء . بهذا الطراز المعمارى مأخوذ عن مصر(٤) كما أن لمصر فى الفن

---

(1) Posener: La Première Domination Perse en Egypte. pp. 45,77. (Le Caire 1936).

(2) Ibid, p. 80.

(3) Gardiner: Egypt of the Pharaohs. p. 369 (Oxford 1961).

(4) Iliffe: Persia and the Ancient World, pp. 17,18. The Legacy of Persia (Oxford 1955).

المعمارى الإيرانى تأثيراً آخر ،فقد اقتبس الإيرانيون طريقة تزيين الجدران من المصريين [١] .

وهذا لقاء فى فن البناء بين مصر وإيران ، نتمثله جلياً معينا كما لم نتمثله من قبل ، وتجسيم لصلة خالدة بين البلدين .

ومادمنا نتدرج مع التاريخ فى تسلسله ، فلنذكر الفتنة التى ثارت فى مصر وهاجت واستغرقت ستة من الاعوام أى من ٤٦٠ إلى ٤٥٤ قبـــل الميلاد . وكانت على عهد أردشير . ويقال إن سببها هو أن والى إيران عسف المصريين عسفاً شديدا . وفى رأى بعضهم أن لها سببا آخر ، هو ما منى به الفرس فى حربهم مع اليونان .

كما كان لليونان يد فى إيجاد تلك القلاقل والهزاهز ، وذلك دأبهم منذ عهد قمبيز رجاء إسقاط الحكم الفارسى فى مصر ، والتسلط على تجارتها وجعلها منطقة لنفوذهم [٢] .

والـكلام فى هذا كثير متسع نجتزىء منه بأن الإيرانيين والمصريين تنازلوا وتقاتلوا كل فريق تحت إمرة قائد يونانى ، إلى أن انـكسر المصريون . ويقول سايكس إن هذا القائد اليونانى بعد أن أطاش سهام المصريين وقذف الرعب فى قلوبهم ، تمـكن من إعادة البلاد إلى الفرس وكان ذلك عام ٣٤٢ قبل الميلاد ، وما تحقق له ذلك حتى أمعن فى العنف بهم والقسوة عليهم ، فتلا تلو قمبيز فى قتل العجل أبيس ، وما كـفاه هذا بل أكل من لحمه فى وليمة أقامها احتفالا باستيلائه على منف ذات الأسوار البيض [٣] .

فقد أشار إلى قتل قمبيز للعجل المقدس دون أن يتحفظ ، كما أنه لم يشر إلى

---

(1) Erdmann : Die Kunst zur Zeit der Sasaniden. s. 22 (Berlin NCMXL III).

(٢) پيرنيا : ايران باستان ، ص ٩٢٩ جلد ٣ (طهران) .

(3) Sykes: History of Persia p. 232. v 1 (London 1930).

المصدر الذى اعتمد عليه فى قوله إن القائد اليونانى قتل العجل وأكل من لحمه . وأيا ما كان، فما نسب ذلك إلى ملك الفرس. فكلامه فى هذا الصدد لا يشككنا فى الحقيقة التى أسلفنا الإشارة إليها ، فما أشبهه بمن طرح سؤالا ينتظر الجواب .

ثم غلب الإسكندر على مصر، وبذلك بلغ عهد الفرس فيها نهايته. وهذا ما يبعثنا على تتبع المصريين والإيرانيين فيما وشج بين هؤلاء وهؤلاء من روابط فى عصور أخرى هى عصور الإسلام .

* * *

إيران ومصر بعد الإسلام

وبعد أن انطلق العرب لقتال الفرس جهادا فى سبيل الله ورغبة فى سبيل الدعوة إلى الحق ، وأظهرهم الله عليهم ، تغيرت الحال بعد الحال . وكان السابق إلى الظن أن تنبت الصلة بين المصريين والإيرانيين لبعد الشقة بين البلدين ، ولأن مصر لم تدخل فى حوزة إيران ، ولا خضعت إيران لمصر فى العصور الإسلامية . غير أننا لو تتبعنا الوشائج بينهما بعد الإسلام ، لألفيناها أقوى وأبقى منها قبله .

فلما دخل الفرس فى دين الله أفواجاً ، وساوى الدين الحنيف بين المسلمين أجمعين ، أصبح العرب والفرس سواء بعد أن ذكروا قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » وقوله « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » [1] وبالتالى أصبحت مصر العربية مصر الإسلامية ، كما أصبحت إيران الساسانيين إيران المسلمين ، وشكل هذان القطران بالإضافة إلى كثير غيرهما عالماً إسلامياً واحداً متحداً تلاشت فى أرجائه المتراحبة كل النزعات القومية أو كادت . ونحن لا نميز فيه تلك العناصر المردودة إلى أصولها إلا بعد تقليب نظر .

ولقد بدأت الصلة بين إيران ومصر منذ تأهب عمرو بن العاص لفتحها ، لأن جيش العرب الفاتحين تضمن عديداً من الإيرانيين الذين عرفوا بالفارسيين . وقيل إنهم بقية جند باذان الذى كان حاكما لليمن من قبل إيران قبل الإسلام . وكانوا قد أسلموا وتطوعوا للجهاد فى سبيل الله [1] .

وكأنما تناسوا أن العرب استولوا على بلادهم ، فما ثبّط هذا همتهم عن

---

(١) همائى : تاريخ ادبيات ايران ، ص ٢٥٧ (طهران ١٣٤٠) .

(1) Guest: Relations between Persia and Egypt. p. 163 : A Volume of Oriental Studies (Cambribge 1922).

اللحاق بهم والانضمام إلى جيشهم ليدخلوا معهم مصر مبشرين بالإسلام محتسبين ذلك عند ربهم .

والصحابى الجليل سلمان الفارسى يذكرنا بأن مصر وإيران شرفتا جميعاً بذكراه . فقد كان له ثلاث بنات ، بنت بأصفهان وابنتان بمصر [١] وما من ريب فى أن اشتراك هذين البلدين فى كونهما مستقرا لذريته ، مما يعد صلة واشجة بينهما لا سبيل إلى نسيانها . فسلمان الفارسى شخصية إسلامية لها عظيم منزلتها عند العرب والفرس . وحسبنا أن نشير إلى قوله عن نفسه أنا سلمان ابن الاسلام لندرك إلى أى مدى كان اندماج المسلمين فى أمة واحدة تتحد فى المتشاكل المتكامل من صفاتها ، وإن اختلفت فى أصول عناصرها ومقوماتها . فمصر وإيران اللتان توزعتا بنات سلمان تمسكان بطرفى صحيفة ننظر فيها لندرك منها ما تتداعى له أفكارنا وذكرياتنا .

وقد نزح إلى مصر كثير من الفرس متخذين منها دار إقامة ، بعد أن قطعوا النظر عن نسبهم الأصلى ، فما همهم إلا الإسلام نسباً ، فلم يميزوا فرساً ولا عرباً . وهذا الليث بن سعد إمام أهل مصر حديثاً وفقها ، قال الإمام الشافعى : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به [٢] وكان مولده بمدينة قلقشندة عام ٩٤ هـ . فذلك الإيرانى العريق النسب أصبح مصرياً بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى ، فهو مصرى المولد والوفاة ، كما حقق الغاية من فتح العرب لمصر وهى نشر الدين الحنيف ، وشأنه يؤكد أن الإسلام لم يفرق بين الأجناس ، وولد جنسية جديدة هى الجنسية الإسلامية .

ودارت الأيام ، فتطورت حال المسلمين كما تتطور كل حال ، وظهرت إلى جانب النزعة الإسلامية البحتة ، نزعة أخرى هى التعبير عن يقظة القومية الإيرانية ، التى تجلت بأتم وضوح فى نشأة الدولة العباسية التى أقامها الفرس ليقيموا بها دولتهم الساسانية التى أسقطها العرب ، فانكسرت شوكة الفرس وذلت عزتهم أمام من غزوهم واستولوا على ملكهم . ومن الدليل على أن الفرس

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ، ص ٤٢١ ، ج ١٢ (القاهرة ١٩٧١) .
(٢) خير الدين الزركلى : الأعلام ، ص ٨٢٣ ، ج ٣ (القاهرة ١٩٢٨) .

شحذوا هممهم لإقامة الدولة العباسية والقضاء على الدولة الأموية، أن الجيش الذى لحق بآخر الخلفاء الأمويين حين وأل إلى مصر، تألفت أغلبيته من الفرس. فكان حافزهم على المجىء إلى مصر قومياً سياسياً.

ولما كان العنصر المهيمن الغالب فى دولة العباسيين هو العنصر الفارسى، قدم مصر كثير من الفرس، ومنهم جنود يعرفون بالخراسانيين يعتزون بقوميتهم ويشتهرون بعصبيتهم، وحسبنا علمنا أنهم من الجند لنعلم مبلغ قدرتهم على فرض رغبتهم فى تغيير مجرى الأمور. وإن كان لهؤلاء الجند سلطة حربية، فلغيرهم من الموظفين الإيرانيين الذين كانوا معهم سلطتهم الإدارية.

وكان للفرس فى مصر نفوذ آخر هو موضع إجلال ولا يقبل نقداً ولا رداً. فلو نظرنا فى كتاب الولاة للكندى لوجدنا أن كثيراً من ولاة مصر كانوا من الفرس. ويعين الكندى ذلك ليقول إن عون بن يزيد من أهل جرجان وهرثمة ابن أعين من أهل بلخ(٣).

ويلاحظ على الكندى قوله تحت اسم أبى عون «مولى هناءة من الأزد، وهو من أهل جرجان» ولا يتأتى فى بداية العقل أن يكون الكندى قد أشار إلى ذلك عفواً، بل إن نسبة هذا الوالى إلى جرجان فى ذلك العنوان، تدل على أن المؤلف أراد تمييزه من سواه بنسبه الفارسى، كما ميز سواه بنسبه الأرمنى والتركى.

وقويت النزعة القومية عند الفرس شيئاً بعد شىء طوال العصر العباسى على ما هو معروف لا تمس الحاجة فيه إلى بيان، بيد أن هذه النزعة بلغت غاية شدتها بعد أن استعان الخلفاء العباسيون بالترك، ثم تسلط هؤلاء الترك عليهم فعزلوا منهم من عزلوا وسملوا منهم من سملوا وقتلوا من قتلوا(١).

---

(١) الكندى: ولاة مصر، ص ١٢٣ و١٦١ (بيروت ١٩٥٩).

(٢) د. حسين مجيب المصرى: صلات بين العرب والفرس والترك، ص ٩٤ (القاهرة ١٩٧١)

ولقد أفلح الفرس قبيل ذلك فى التعبير عن رغبتهم فى استرجاع ملكهم وإحياء كيانهم ، حين تولى طاهر بن الحسين قائد المأمون الشرطة وهى أهم منصب بدار الخلافة، ثم عقد له على ولاية خراسان عام ٢٠٥ هجرية ، وبذلك ظهرت الدولة الطاهرية وهى فارسية إلا أنها عربية بالولاء ، وهى أول دولة فارسية الأصل والنزعة تدخلت فى شؤون الخلافة العباسية ، وقد عبر طاهر بن الحسين عن ذلك بقوله :

إنا إناس لنا صنائعنا

فى العرب معروفة وفى العجم

مغتنمو كسب محمدة

والكسب للحمد غير مغتنم

وهذه الدولة الطاهرية من حيث كونها أول دولة فارسية فى العصر الإسلامى ، تذكرنا بما وشج من صلة بين مصر وأحد أفرادها وهو عبد الله بن طاهر . فقد ولى مصر من قبل المأمون سنة إحدى عشرة ومائتين بعد عزل عبيدالله بن السرى [1] الذى حدثته نفسه بشق عصا الطاعة والخروج على المأمون . فأرسله المأمون على رأس جيش لقتال عبيد الله بن السرى . وانهزم الثائر المتمرد وطلب الأمان من غير شرط . ولما دخل عبد الله بن طاهر مصر ، أرسل إلى من بها من أهل الأندلس ومن التف حولهم ينذرهم بالحرب إن هم لم يدخلوا فى طاعته، فأذعنوا له وانقادوا على أن يزايلوا الإسكندرية إلى جزيرة إقريطش فاستوطنوها [2]

وكانت وفاة عبدالله بن طاهر سنة ثلاثين ومائتين وذلك فى خلافة الواثق [3] وفيه يقول الشاعر أثناء كونه على إمرة مصر :

يقول أناس إن مصر بعيدة

وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ص ١٩١، ج ٢ (القاهرة ١٩٣٠) .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى ، ص ١٨٣، ج ٧ (القاهرة ١٩٣٩) .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، ص ٣٦٤، ج ٢ (القاهرة ١٣٤٦) .

وأبعد من مصر رجال تراهم
بحضرتنا معروفهم غير حاضر

عن الخير موتى ماتبالى أزرتهم
على طمع أم زرت أهل المقابر

وتلك أبيات تدل على كثير، وأول ما نستشفه منها أن قائلها من أهل إيران، فقد كان لعبد الله بن طاهر عظيم النفوذ فى طبرستان والرى وكرمان ، كما أن الشاعر يجعل من ممدوحة وصلة بين مصر وإيران ، ويالها وصلة بلغت من القوة غاية غاياتها، لأنها قربت من إيران مصر البلد السحيق ، وبفضل من عبد الله ابن طاهر تصاقبت الداران وهما المتباعدتان .

وكأنما شاء أن الله يخلد لعبد الله بن طاهر الذكر فى مصر على نحو مستطرف مستظرف ، فقد ذكر الوزير أبو القاسم المغربى فى كتاب أدب الخواص أن البطيخ العبدلاوى بالديار المصرية منسوب إلى عبد الله بن طاهر(١) .

وبدت مظاهر القومية فى الدولة الطاهرية التى دامت إلى عام ٢٥٩ هـ . وأولها اللغة الفارسية المعروفة بالفارسية الحديثة والشديدة التأثر بالعربية، فظهرت فى أواخر عهد الطاهريين إلى جانب العربية ، أدبيا ورسميا بخراسان ، ومن شعرائها المتأخرين أبو الطيب الطاهرى الذى كان ينظم بالفارسية والعربية(٢) .

ونحن إنما نشير إلى هذه الدولة لندرك أن الفرس قد أصبح لهم كيانهم الخاص ، وسماتهم التى ينفردون بكثير منها عن العرب .وإذا ما أثروا فى المصريين من بعد، فلن يكون تأثيرهم هذا إلا أقوى وأعمق من ذى قبل ، ولنضرب لذلك مثلا ثلاثة من شعراء الفرس كانت لهم على مصر وفادات . وبينهم تشابه وتخالف واتفاق .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ص ٢٧٤-٢ (القاهرة ٨ : ١٩).
(٢) المنجى الكعبى : الدولة الفارسية الأولى فى الإسلام ، ص ١٢٢ و١٢٣ . الفكر دراسات إيرانية عدد ١ (تونس ١٩٧١) .

ولنبدأ بذكر أبي نواس ذلك الشاعر الفارسى الجنس العربى اللسان ، الذى يذهب بعضهم إلى أنه أعظم شعراء العصر العباسى ولعله أعظم شعراء العربيـــة[1] .

فأبو نواس لم يكن على علم بالفارسية إلا أنه يعبرعن يقظة القومية الفارسية ، فقد كان هذا الشاعر شعوبيا يتعصب للفرس على العرب وحسبنا أن نشير هنا إلى بيتين أظهر أبو عبيدة شديد إعجابه بهما ، قالهما مشيداً بما كان للفرس من مجد فى سالف الدهر[2] :

بنينا على كسرى سماء مدامة
مكللة حافاتها بنجوم

فلو ردفى كسرى بن ساسان روحه
إذن لاصطفانى دون كل نديم

وقد رحل أبو نواس إلى مصر طمعا فى نوال الخصيب عاملها للرشيد ، فمدحه بمدائح من أروع ما قال ، كما مدح غيره من العظماء فى مصر ، فظفر من العطاء بشىء كثير ، غير أنه أتلف ماله فى مجونه ونزواته بعد أن خالط الخلعاء والمجان فى مدينة الفسطاط نحو عام .

ونحن نعتبر وفوده إلى مصر صلة بينها وبين الفرس ، لتلك الملامح التى تميزه فى نسبه وأدبه ورأيه ، ولا شك أن تلك الملامح كانت أظهر فيه ممن قدموا مصر قبله . ولسوف يصبح معظمها أقوى ظهورا فيمن يقدم مصر بعده .

ونذكر بعده ناصر خسرو الذى زار مصر فى القرن الخامس الهجرى ، وهو شاعر رحالة صاحب مذهب .

ووصل أسبابه بأسباب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، وسبوأه إمام الفاطميين

(1) Kratchkovsky : Izbrannye Sotchinenya. Str. 341, II (Moskva 1965).

(٢) ابن منظور : أخبار أبى نواس ، ص ٥٧ (القاهرة ١٩١٤) .

منصب حجة جزيرة خراسان وهى من جزائر الدعوة الإسماعيلية . ووكل إليه أن ينشر المذهب الاسماعيلى ويرأس الباطنية فى تلك الجهات(١) .

ويعتبر ناصر خسرو أهم كاتب تصدى لوصف عظمة مصر فى عهد الفاطميين. وفى كتابه الموسوم بسفرنامه بمعنى كتاب السفر لم يذكر اسم الخليفة الذى نظم فيه شعراً وجعله سيد زمانه ، إلا أنه اختـــار لنفسه المذهب الشيعى الإسماعيلى وجعل على نفسه أن ينشر هذا المذهب فى إيران(٢) .

وما من ريب فى أن ناصر خسرو أنجز مهمة غاية فى الأهمية بالنسبة إلى ذلك المذهب . كما أن وصفه لسياحته وما شاهد فى مصر من مظاهر الحضـارة يعـد مصدراً لا يسع باحثاً فى تاريخ ذلك العصر الفاطمى أن يغفل الإشارة إليـــه والاعتماد عليه . وكتابه تاريخ دقيق وصورة صادقة لها فى الفارسية .

ويذكر بعده سعدى الشيرازى وهو فى عداد خيرة الشعراء وصفوة الكتاب. كما أنه ساح فى البلاد طولا وعرضا . ولا نعرف من كان أكثر منه سياحة سوى ابن بطوطة(٣) .

ومن الباحثين من يخالجه الشك فى صحة ذلك العدد الكبير من البلاد التى رحل إليها ، كما يعتبر أخبار رحلته إلى الهند مثلا من نسج الخيال الذى يذكرنا بخيال الحريرى فى مقاماته ، ولكن من المقطوع به أنه ارتحل إلى مصر وأقام فيها(٤) .

وسعدى يحدثنا فى كتابه « بوستان» بمعنى البستان عن عبـــد له فى مصر لـيّن العريكة ساجى النظرات ، إلا أنه أغلظ عليه اللائمة ذات يوم لما قيل له عنه من بلادة ذهنه(٥) . كما حدثنا فى موضع آخر من كتابه المنظوم هذا عن رجل وسيم فى مصر يلبس ثياباً رثة ولا يتكلم .

(١) د. ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ جلد دوم (تهران ١٣٣٩) .

(٢) غنى زاده : سفرنامه حكيم ناصر خسرو ، ص ٢٢ (برلين ١٣٤٠) .

(٣) مالى (ت) سروش : حيات سعدى ، ص ١٠ (ايران ١٣١٦) .

(4) Massé: Essai sur le Poète Saadi. pp. 41,62 (Paris 1919).

(٥) سعدى : كليات سعدى ، ص ١٥٢ (بمبى ١٣٣٥) .

وقد التف الناس حوله كالفراش الذى يسعى إلى نور الشمعة ، ثم تكلم ليعلم الناس أنه من العلماء ، ولما تكلم عرفوا أنه فى مصر أجهل الجهلاء[1] .

وإذا ماقلنا إن القصة الثانية لا تقطع بزيارته لمصر ، فمن الحتم أن تكون قصته الأولى مع عبده صريحة الدلالة على إقامته مدة فى هذا البلد .

وفى مقدورنا أن نستنتج مثل ذلك تماما من كتـــابه « گلستان » بمعنى الروضة وهو مزيج من المنثور والمنظوم . ففى إحدى حكاياته أن أخوين كانا فى مصر ، وقد شغف أحدهما بجمع المال ومال الآخر إلى تحصيل العلم ، فأصبح الأول عزيز مصر والثانى علامة العصر . ولما فخر الملك بملكه رد عليه العالم بأن الله ميزه عليه بميراث الأنبياء أى العلم، على حين أورثه ملك مصر وهذا ما كان لفرعون وهامان[2] .

وفى حكاية أخرى من كتابه هذا يقول سعدى إن الناس قحطوا فى الإسكندرية حتى اجهدتهم الفاقة واشتد بهم الكرب، وكان فى الإسكندرية مخنث واسع الثراء له الكرم الجم والعطاء الجزل . ومضى الفقراء إلى سعدى يطلبون المشورة فيما حزب من أمرهم ، ويسألونه الرأى فى جواز بسطهم يد السؤال إلى هذا الكريم مسترفدين، رجاء أن يغيثهم ويفرج عنهم شدتهم .إلا أنه ربأ بهم عن ذلك وكرهه لهم . لأن الأسد يهلك جوعا وتعف نفسه عن أكل ما تبقى من طعام الكلب ، وشدة الفقر خير لهم من سؤال السفلة[3] .

والحاصل أنه يبين عن الحق ولا يقول عن نفسه سوى الصدق ، لأنه إنما حدثنا عن نفسه وروى لنا ما وقع له . ومما يرده العقل بداهة ، أن يكون سعدى

---

(١) سعدى: كليات سعدى . ص ١٤٤ (بمبى ١٣٣٥) .

(٢) سعدى : گلستان ، ص ٩٦ (ايران ١٣١٠) .

(٣) نفس المصدر : گلستان ، ص ١٠٢ (ايران ١٣١٠) .

متخيلا ، وإلا لحمل كلامه على غير ظاهره فى مواضع أخرى من كتابه، حدثنا فيها عن الخاص من شأنه وأخذ بقوله فيها من تعرفوا إلى سيرته وكتبوا ترجمة له .

كما أنه يؤكد لنا وجود ألفة وصحبة بينه وبين المصريين الذين عرفوا له فضله وسمو منزلته وسداد رأيه .

وكانت زيارة هذا الشاعر الإيرانى الأعظم لمصر فى عهد الأيوبيين .

فسعوا إليه يلتمسون منه النصح . وهم على ثقة من أنه سوف يصدقهم المشورة ويتوخى لهم مناهج الرشد .

وزار مصر شاعر إيرانى آخر هو فخر الدين العراقى الذى قال عنه دولتشاه فى تذكرته إنه عديم المثال فى الوجد والحال ، ويعتقد فى كلامه الموحدون والعارفون وله فى التصوف شعر هو فيض الوجدان [١]

وكان من القلندرية ، والقلندرية فى التصوف شعار مخالف لما تواضع عليه سواهم [٢] .

وكانت السياحة معروفة عند الغلاة من الصوفية . فلبس ثوب السياحة مثلا كناية عن الزهد فى الدنيا وقطع الأسباب بين الصوفى وبينها [٣] . ومادام الأمر كذلك فليس بمستبعد أن يكون فخر الدين العراقى قد زار مصر فى القرن السابع الهجرى سائحا . ووجد السبيل إلى قصر السلطان الذى أكرمه حق إكرامه ، كما وقره عظماء مصر حق توقيره عرفانا بفضله . وبلغ من حظوته عند السلطان أن يأمر بتنصيبه شيخاً لشيوخ مصر ، فأقبلت الدنيا عليه أى إقبال ، وبلغ من الرفعة أوجها شأن من يسمو إلى مثل هذا المنصب .فصاحب هذا المنصب لا يحل السلطان ولا يعقد إلا بمشورة منه ، بعد أن يستنير برأيه فى المشكلات ويهتدى بعلمه وحكمته فى الملمات .

---

(١) دولتشاه : تذكرة الشعرا ، ص ٩٥ (بمبى) .

(٢) د. معين: مزديسنا وتأثيرات آن دار ادبيات فارسى ، ص ٥٠٦ (تهران ١٣٢٦).

(٣) د. قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام، ص ٦٦ (طهران ١٣٢٢) .

وكان تنصيب فخر الدين العراقى حدثا ذا بال فى القاهرة عرفه القاصى والدانى ، ورأى السلطان أن يحتفل به احتفالا جد عظيم. فأمر باستدعاء ألف من الصوفية والعلماء ورجال الدولة إلى القصر ليشهدوا مالم يشهدوا مثله من قبل . كما أراد العراقى أن يركب فرسا مطهما ويلبس ثوباً فاخراً ويضع على رأسه قلنسوة ، ثم يغادر القصر فى موكب من هؤلاء الذين تجمهروا فى القصر للسير فى ركابه . ومارأى تلك المظاهر من مظاهر العظمة حتى دخله شيء من الكبر والخيلاء وغلب عليه ما يشبه الشعور بالعزة والميل إلى الفخر بالنفس . وعوّل فى التوّ على أن يغالب هذا الشعور الذى غلبه أوكاد ، فطرح قلنسوته أرضا ، وتلبث مدة ثم وضعها على رأسه . ورأى الناس هذا فأخذهم منه كل العجب ، وتهامس بعضهم بأنه قد جن ولا بد ، وتوهم بعضهم الآخر أنه أراد أن يجيئهم بأفكوهة تضحكهم. وما صبر الوزير أن قال له فى ذلك ، فكان من رده عليه أن قال له « الزم صمتك فما يدريك أى أمر هذا » ونمى الخبر إلى السلطان فاستدعاه من الغد ليسأله عما قد يكون لما فعله هذا من مغزى .

فقال فخر الدين العراقى « أحسست بزهو يغلب علىّ ، فأردت أن أكسر من هذا الزهو، ولذلك فعلت مافعلت مبادراً ، قبل أن يسيطر علىّ ويتمكن منى » .

فملك هذا من كلامه على السلطان إعجابه ، ورسخت عقيدته فيه أكثر من ذى قبل ، وأشاد بفضله وأجمل الثناء عليه ، فبلغ فى الرفعة غاية لا متجاوز وراءها (١) .

وإذا رأينا أن نستقرىء العلة فى هذا من صنيعه ، ذكرنا أول ما ذكرنا أنه صوفى فلا بدع أن يصدر مثل ذلك منه . غير أننا نرده إلى حقيقة أخرى لا ينبغى أن تغيب فى هذا المقام عنا ، وهى أن شعراء الصوفية من الفرس درجوا على التعبير عن أصول التصوف وفروعه بشعر يجنحون فيه إلى التمثيل ، وحققوا ذلك من بغيتهم بالقصص المنظوم ، فنظموا الآلاف المؤلفة من الأبيات فى كثير من القصص التى طوّعوها لمعان رمزية ، وضمّنوها عبارات وإشارات

(1) Arberry, Iraqi, Mystic Poet of Iran. pp.42,43(London1939)

لهامعنيان قريب غير مقصود وبعيد هو المقصود . وكأنما استنهج عراقى هذا النهج ، وقد سيطر عليه مألوف شعراء الصوفية فى الإيضاح بالتمثيل وضرب المثل . إلا أنه اختار مثلا حيًّا ، وكان فى رمزه عملياً واقعياً ، وبذلك تأتى له أن يعلم الناس مالا نسيان له على طول الزمان . ولنا أن نضيف إلى ذلك أنه أطلع المصريين على شيء من خصائص العبقرية عند الإيرانيين .

ومنصب شيخ الشيوخ الذى تبوأه فخر الدين العراقى، يذكرنا بأن شيخ الشيوخ كان رئيسا للخانقاه فى عهد صلاح الدين الأيوبى . وكان فى الخانقاه يعقد مجالس الوعظ والإرشاد، ويجتمع عنده خلق كثير من خواص الناس وعوامهم.

والخانقاه كلمة فارسية تطلق على مبنى يقيم فيه الصوفية ، وسمى رباطاً ومدرسة بتطور الزمن . وصلاح الدين الأيوبى يعتبر أول من أسس الخانقاه فى مصر ، وقد تنافس الأمراء والوزراء من بعد فى إقامة الخوانق ، وحبسوا الأموال عليها. وهذا النمط من الأبنية أو المؤسسات الدينية كان معروفا فى إيران من قبل، وعليه فالمصريون آخذوه عن الإيرانيين .

والشاعر الفارسى الصوفى أبو سعيد بن أبى الخير المتوفى عام ٤٤٠ هـ أول شيخ من شيوخ المتصوفة فى إيران اتخذ من الخانقاه مكاناً يعلم فيه مريديه تعاليمه الصوفية . وبذلك أكسب الخانقاه طابعها التعليمى الصوفى ، وله فضل السبق إلى هذا . [١] بل وأثر عنه فضله فكان من أهم ملامح شخصيته. ومن الدليل على ذلك أن فريد الدين العطار فى ترجمته له ، ذكر الخانقاه أربع مرات[٢] .

وما دمنا قد أشرنا إلى أن إقامة الخوانق فى مصر مقتبسة عن إيران ، فليس من نافلة القول أن نتبين أهميتها . والمقيمون فى الخانقاه منقسمون بعامة

(1) Nicholson : Studies in Islamic Mysticism. p. 76 (Cambridge 1921).

(٢) عطار : تذكرة الأولياء: ص ٣٣٠ و٣٣٢ و٣٣٣ و٣٣٦ ، ج ٢ (ليدن) .

أقساماً ثلاثة : أهل الخدمة وأهل الصحبة وأهل الخلوة[١] فكأنهم لم يكونوا جميعاً قابعين فى ركنهم متعبدين قانتين ليس إلا . بل كان منهم من توفروا على تحصيل أشتات العلوم حتى أصبحوا من خيرة العلماء الذين أفادوا بمؤلفاتهم ومصنفاتهم. وشكلوا مجتمعاً داخلياً خاصاً بهم، كان له أثره فى المجتمع الخارجى من حولهم . فقد اختلطوا بالناس وعلموهم ما لم يكونوا يعلمون من أمور دنياهم ودينهم .

وكان لسلاطين المماليك فى مصر ولوع بإقامة الخوانق ، وتعتبر كثرتها من خصائص عصرهم . كما لا يفوتنا أن نقول إنها من أهم الآثار المعمارية فى مصر ، والكثير من ملامحها المعمارية مأخوذ عن الفنون المعمارية الإيرانية . ولنا أن نقول إن هذا الطراز من المبانى يعقد بين إيران ومصر أكثر من صلة . ولن ننسى الأصل الفارسى للخانقاه إذا ذكرنا اسمه الفارسى ، والاسم الفارسى الذى يطلق على من يخرج من الخانقاه إلى السوق ليبتاع الطعام للمقيمين فيها . وهو « حوايج كشان » بمعنى حامل الطعام .

وإن تطلعنا مصر الفاطمية وجدنا أن لها بإيران صلة وثق . وما ذلك إلا لأن الفاطميين أخذوا الكثير عن الفرس فى عاداتهم ورسومهم ، حتى جعلوا بلاطهم أشبه ما يكون ببلاط ملوك الفرس، فأخذوا إخذهم فى الرسمى من حفلاتهم ، فكان عند الفرس حفلات يشترك فيها الملك ورجال دولته ، وذلك فى أيام معلومات حافلة . وما انقطعت قط صلة الفاطميين ببلاد الفرس ، تلك الصلة التى ظلت وطيدة منذ ظهور المذهب الشيعى[٢] .

والدولة الفاطمية دولة شيعية ، وعند أهل السنة أن الفواطم من أهل البدعة . وما كان لدولتهم سابقة فى المجد الأثيل . إلا أنها بوأت مصر مكانة مرموقة ، إذ جعلتها من أهم بلاد العالم الإسلامى[٣] .

---

(1) Ikbal Ali Shah: Islamic Sufism. p. 29 (London 1933).

(٢) د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ص ٤١ (القاهرة ١٩٥٥) .

(3) Inostrantsev. Torjestvenny Viyezd Fatimidskih Khalifov. str. 12 (Petersbourg 1905).

وحسبنا أن نشير إلى تشيع الفاطميين لنتمثل ما ينبغى أن يكون بينهم وبين الفرس من روابط . ولكن لنتابع الأمر إلى غاياته لنقول إن الخليفة الفاطمى كان يتشبه بكسرى . فإذا تهيأ الانعقاد مجلسه جلس خلف ستار، ثم يرفع الستار ويرتل جماعة من المقرئين القرآن بصوت مرتفع (١) ويقول المسعودى إن ستارا كان يفصل بين ملوك الفرس ومن يحضرون مجالسهم . وكان أحد أبناء الأساورة ويسمى « خرم باش » بمعنى كن سعيداً موكلا برفع ذلك الستار . وقبل رفعه يرفع صوته بقوله « راع ماتقول ، فأنت فى حضرة الملك » (٢) .

ويقـــول الجاحظ إن ملوك الأعاجم من لدن أردشير إلى يزد جرد كانت تحتجب عن الندماء بستار وبينه وبين أول الطبقات عشرون ذراعا (٣) .

واحتفل فى مصر بالأعياد الفارسية. وأهمها عيد النيروز الذى يعتز الإيرانيون به اعتزازاً قومياً وينسبونه إلى ملكهم الأسطورى جمشيد . وإذا نظرنا فى ديوان الأمير تميم بن المعز لرأيناه يزف التهنئة بهذا العيد إلى الخليفة فى كثير من قصائده . ومن أعياد الفرس عيد يسميه العرب السذق ، وينسب إلى گيو مرث أول ملك من ملوك الفرس فى تاريخ ملوكهم الذى تكتنفه الأساطير . وجرت العادة بأن يلقوا بذوراً فى نار يوقدونها (٤) .

وفى هذا العيد كانت المصابيح توقد فى الحوانيت . وكل من حمل مصباحا نال على ذلك درهما ، كما كان ماء الورد والحلوى توزع على رجال الدولة (٥)

ويطول بنا الكلام إذا بسطناه تفصيلا فى وصف تلك الأعياد والاحتفالات الإيرانية والشيعية التى أضفت رونقا خاصاً على المجتمع المصرى فى عهد الفواطم، ولنقتطف أبياتا من قصيدة لشاعر من شعراء ذاك العهد هو عمارة اليمنى يرثى بها دولتهم التى انقضت عام ٥٦٧ ﻫ . ومن قوله :

---

(١) د . حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ٢٦٩ (القاهرة ١٩٣١) .

(2) Christensen: L'Emipre des Sassanides. p. 97 (Kobenhavn 1907).

(٣) الجاحظ : التاج، ص ٢٨ (القاهرة ١٩١٤) .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ص ٤٢٢ ، ج ٢ (القاهرة) .

(٥) متز (ت) أبو ريدة : الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨٣ ، ج ١ (القاهرة ١٩٥٧) .

وموسم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على جمل
وأول العام والعيدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل

ولما كان الاحتفال بالأعياد من مظاهر الاعتزاز بالقومية ، كانت هذه الأعياد تعبيراً صريحا عن ذلك المدى البعيد الذى بلغه الفاطميون فى ميلهم إلى الفرس ومظاهر حضارتهم .

ولا جرم كانت مصر آنئذ موطنا للفنون على تباين أنواعها ، وليس فى الإمكان أن نتصور الفن الإسلامى دون أن نتصور لإيران أثراً فيه ، وهذا ما يستوجب أن يكون الفن الإسلامى شديد التأثر فى عهد الفواطم بالفن الإيرانى .

ولقد ارتقى فن النسج وبدا أثر إيران فيه بجلاء . يقول ناصر خسرو عن مدينة فى مصر تسمى تنّيس إن القصب الملون الذى تنسجه منقطع النظير فى الدنيا بأسرها ، ومن بسمعه أن ملك إيران أرسل إلى تلك المدينة ألفى دينار ليبتاع منها ثوبا له ، غير أن ذلك عزّ عليه فما حقق بغيته[١] :

ويدرك من كلام ناصر خسرو أن طراز تنّيس كان كما ذكره عمارة اليمنى بقوله :

ثم الطراز بتنّيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الأرض فى الدول

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامهٔ حكيم ناصر خسرو : ص ٥١ (برلين ١٣٤٠) .

وبلغ من رواج سلعته وكثرة إنتاجه لتلبية ما يطلب إليه إنجازه وتصديره ، أن يعجز عن تلبية طلب إيران ، وكأنما لم يجد هذا الملك نظيراً لما يطلب حتى في بلده الذى اشتهر بكل فن وصناعة فاستفاضت له الشهرة ، فبحث عن ضالته المنشودة فى مصر التى تأثرت بإيران فى الفن ، وربما رجحت عليها كما يفهم من ذلك الخبر الذى جاءنا به ناصر خسرو .

أما سائر الفنون كالنقش على الخشب وصنع القيشانى والأوانى البراقة والصور النباتية والحيوانية فمتأثرة فى عمق بالفن الإيرانى[1].

وبين مصر وإيران صلة أخرى تباين كل ماعرفنا من صلات لأنها صلة لغوية وغير مباشرة. غير أنها لا تقل مع ذلك فى الوثاقة عن غيرها بل ربما فاقتها فى دوامها وأهميتها .

فبعد أن فتح الأتراك العثمانيون مصر عام ١٥١٧ م وتأسس ثم توطد ملكهم فيها ، خالط الترك المصريين ، وأفضى ذلك إلى سيطرة الغالب على لغة المغلوب . فأثرت التركية فى العربية. وانسرب فى لغة المصريين ما لا يحصى كثرة من الألفاظ والتراكيب التركية حافلة بالكثير من الألفاظ الفارسية. فوجدت الفارسية سبيلها إلى عربية المصريين .

وإن نعد هذه الألفاظ الفارسية التى تجرى كل يوم على ألسنة المصريين لا نحصيها ، وحسبنا أن نذكر أسماء بعض الأطعمة الفارسية مثل كباب وكوفته ويخنى وكشك وموزه وهى قطعة من اللحم تسمى فى الفارسيـــة مازو ، وكل واشكر وأصلها فى الفارسيه گلشكر بمعنى الورد والسكر. وخشاف وأصلها فى الفارسية خوشاب بمعنى الماء اللذيذ. وكلمة بس بمعنى كفى وهى فارسية محضة. ومن عبارات المصريين قولهم شوبش وهى متطورة عن شاباش، وشادباش فى الفارسية بمعنى ابتهج .

---

(١) د . زكى حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٠٥ (القاهرة ١٩٣٢) .

وللمصريين ولوع شديد بإطلاق الأسماء الفارسية على بناتهم ، ولاشك أنهم أخذوا تلك الأسماء عن الترك الذين ألفوا أن يسموا بها البنات ؛ ولكن مع فارق. فالترك فى سالف العصور على الخصوص كانوا يفهمون معنى تلك الأسماء الفارسية ، لأن العلم بتلك اللغة كان ضرورة ثقافية لا غنية لتركى عنها ، وكانت الفارسية عندهم لغة الفصحاء ، فأرادوا أن يتحفوا بناتهم العزيزات عليهم بأفصح الأسماء وأجملها. وليس الشأن كذلك عند المصريين الذين اقتبسوا تلك الأسماء عن الترك دون أن يفهموا لها معنى ولا يستطيعوا أن يدركوا من أى اللغات هى . غير أنهم اختاروها إعجاباً منهم بخروجها عن المألوف وحسن وقعها فى السمع ، راغبين فى تحبيب النساء وتجميلهن وتدليلهن .

فالمصريون يتبعون فى ذلك الترك الذين أخذوا من قبل عن الفرس ، وإذا نظرنا فى كتاب الدرالثمين فى أسماء البنات والبنين لعجبنا لكثرة الأسماء الفارسية وقلتها فى التركية (١) .

ومن هذه الأسماء ، جهان بمعنى الدنيا وشيوه كار بمعنى ذات الدلال .

وتلك الحقيقة الخاصة تورد على البال حقيقة عامة ، وهى تتعلق بكثرة استعارة العربية والفارسية والتركية بعضها من بعض ، حتى قال قائل وهو يبالغ ، إن هذه اللغات يمكن أن تعد ثلاث لهجات للغة واحدة نسميها لغة الأدب الإسلامى (٢) .

وإن ارتبطت العامية فى تفكيرنا بالفصحى ، ذكرنا الأدب فى مصر وذهبنا نتلمس تأثراً للأدب العربى بالأدب الفارسى . ونحن واجدون ذلك فى الشعر . وأول من نذكر من شعراء مصر شاعر عاش فى العصر الأيوبى هو ابن سناء الملك . ولقد درس هذا الشاعر اللغة الفارسية ، فأتيح له أن يتأثر بالشعر الفارسى ، واستعار الخرجة الفارسية لبعض الموشحات التى نظمها بالعربية ،

---

(١) محمد مقبل بيك : الدر الثمين فى أسماء البنات والبنين ، ص ٣١ و ٣٨ و ٤١ و ٤٢ و ٤٨ و ٤٩ (القاهرة ١٢٩٤) .

(2) Hachtmann: Europaïsche Kultureinflüsse in der Türkei. s. 9 (Berlin 1918).

وبذلك لم يجر على مألوف الوشاحين المصريين من أهل عصره ، لأنهم كانوا يستعيرون خرجات الأندلسيين العامية[١] .

وننتقل فى عصور الأدب العربى من العصر الأيوبى إلى العصر الحديث، ذلك الذى برز فيه أمثال شوقى وحافظ ومطران، ورائده الأول محمود سامى البارودى المتوفى عام ١٩٠٤ والذى قيل عنه إنه بعث دولة الشعر بعد العدم . ولقد اطلع هذا الشاعر اطلاعاً واسعاً على الأدب العربى والفارسى والتركى[٢] ، وثقافته ثقافة الأديب التركى من أهل زمانه ، وكان المتأدب التركى يأخذ نفسه بدراسة العربية والفارسية إلى جانب لغته التركية . والبارودى تثقف بتلك الثقافة التركية لأن التركية فى عهده كانت لغة الحكام والعسكريين والإداريين .

والبارودى آخذ بعض المعانى عن الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى فى مثل قوله :

هى الدار ما الأنفاس إلا نهائب
لديها وما الأجسام إلا عقائر
إذا أحسنت يوما أساءت ضحى غد
فإحسانها سيف على الناس جائر
تربّ الفتى حتى إذا تم أمره
دهتـــه كما ربّ البهيمة جازر

وهذه معان يذكرها كل من شدا شيئاً من أدب الفرس لأنها فى أبيات يتضمنها كتاب گلستان الذى يطلع عليه كل من يتعرف إلى الأدب الفارسى . وليس يخاف أن البارودى مقتبس فى الأبيات الثلاثة معناه من قول سعدى فى أول كتابه ما ترجمته « فى كل برهة من العمر نفس يمر ، ولن تجد من أحد وأنت تنظر »[٣] .

(١) د. عبد العزيز الأهوانى : ابن سناء الملك ، ص ١٨٢ (القاهرة ١٩٦٢) .
(٢) د . محمد صبرى : أدب وتاريخ واجتماع ، ص ٥٥ (القاهرة ١٩٥٠) .
(٣) هردم ازعمر ميرود نفسى   چون نــگه ميكنى نما ند كسى

ومن قول هذا الشاعر الفارسى فى خاتمة الحكاية الأولى من الباب الأول « لاتول عمر الدنيا شيئا من ثقتك ، فكأى من إنسان مثلك ربت ثم قتلت [١] ».

وفى ديوانه بيتان تحت عنوان « وقال وهو مترجم عن الفارسية » :

هتف الديك سحرة   فاصطبحنا لهتفه
بشراب كعينه   وكباب كعرفه

ولم نهتد إلى الأصل الفارسى لهذين البيتين . ولكن من المحتمل جد الاحتمال أن يكون البارودى قد تأثر فى مواضع أخرى من شعره بالشعر الفارسى ، وتلك صفة مميزة لاسبيل إلى نسيانها فى تاريخ الشعر المصرى خصوصاً إذا ذكرنا أن البارودى يعتبر الشاعر العظيم الأول وإليه مرجع الفضل فى إحياء هذا الشعر وتغيير مجرى تاريخه .

والبارودى من حيث كونه شاعر عصره يذكرنا بعائشة التيمورية المتوفاة عام ١٩٠٢ . وهى مصرية المولد والمقام وإن كانت فى نسبها كردية تركية شركسية [٢] كما أنها أشعر وأشهر شاعرة صاحبة ديوان بعد الخنساء . وكانت ثقافتها ثقافة الترك من أهل عصرها ، وهى تشبه البارودى فى نوع ثقافتها وسمو منزلتها فى شاعريتها . ولها أشعار جياد فى ثلاثة دواوين عربى وفارسى وتركى . ولقد ذكرت فى مقدمة ديوانها التركى أنها طرحت فى النار ديوانها الفارسى صفحة صفحة بعد وفاة ابنتها ليحترق كما احترقت مهجتها [٣] .

ومن أسف أن شعرها الفارسى قد ضاع برمته ، ولم يبق الزمان على شىء منه لنتبين خصائصه .

وهنا وقفة لابد منها للإشارة إلى أن الشعر التركى القديم عميق التأثر بالشعر الفارسى فى معناه ومبناه . فمن يتأثر بالشعر التركى يتأثر بالشعر الفارسى بالواسطة . وهذا حكم نطلقه على بيتين من شعرها العربى تقول فيهما :

---

(١) مكن تكيه برعمر دنيا وپشت   كه بسيار كسى چون تو پرورد و كشت

(٢) أحمد كمال زاده : ديوان عائشة التيمورية ، ص ١٦ (القاهرة ١٩٥٢) .

(٣) د. حسين مجيب المصرى : فى الأدب العربى والتركى ، ص ٣١ (القاهرة ١٩٦٢).

وكلمــا حرروا منشور مظلمتى
وأظهروا فى الورى غدرا جناياتى
أظهرت شكرى لهم بالرغم من أسفى
وكان ما كان من فرط التهـــاباتى

فكلمة « منشور » تدور كثيرا فى الشعر الفارسى والتركى . ولا تجرى مجرى المألوف فى الشعر العربى ، كما أنها لا تسوغ بحال فى ذوق كل من يبصر شعر العرب .

وهى تذكرنا بشعراء الصوفية من الفرس والترك وهم يذكرون الخمر على أنها رمز لنشوة العشق الالهى ، فهى القائلة :

جهـــل العواذل ما تريد بشربها
نفسى وما تلـــق من السكرات
شتـــان بين ظنونهم وسرائرى
الله يعـــلم منتهى غـــاياتى

وما دمنا نتتبع على هذا النحو صلة شعراء من المصريين بإيران وشعرائها ، قلنا أن نضيف كاتب هذه السطور الذى قال بعض من درسوا شعره ما نصه « لعل أهم سمة وأوضحها هى التأثر بالشعر الفارسى والتركى ، من حيث الجنوح إلى الرمزية الصوفية والاستئثار بها ، فقد اتخذها برزخا إلى غايته فى الإفصاح عما يضطرب بكيانه ويجيش بأغواره ، كذلك من حيث اقتفاؤه سبيل شعرائهما فى مجالات الخيال والعروض والمعانى الخاصـــة بهم، ثم من حيث استعماله « الرديف » فى بعض قصائده ، والرديف أن يضاف إلى نهاية كل بيت لفظ يتكرر فى جميع الأبيات وتلتزم قبله قافية واحدة . وأقرب دليل على ظاهرة التأثر هذه أن عناية الدكتور المصرى بالشعر الفارسى والتركى منذ ثلث قرن دارساً ومدرساً ومؤلفاً ، حيث التزود من منابعه والانكباب على بدائعه وطرائفه، جعلته مستغرقاً فى خضمه ، متعاطفاً روحياً وعقلياً معه ، متأثراً به تأثراً عميقا يصعب معه التخلى عنه والزهد فيه، جعلته ينحو هذا النحو الجديد الذى

لا نعتقد أن الأدب العربي المعاصر عرف ضريبا له ، مما أضفى على شخصيته الأدبية طابعا مستقلا ، وعلى شعره مذاقا خاصا[1] » .

وكأنما أراد هذا الشاعر لقارئه أن يتعرف إلى الشعر الفارسي ، فكان إذا تأثر بمعنى الشاعر من شعراء الفرس بادر التذكير بذلك في هامش الديوان وساق مثالا وأمثلة في أصلها الفارسي ثم ترجمها ، وقد سلك هذا المسلك في معظم دواوينه[2] .

ومثال ذلك قوله :

أدر كأسا على ذكرى
وألهم خاطري شعرا
بشعرك مل على رأسي
وأودع مهجتي سرا
لأنسى المر من يأسي
وتنفح روضتي عطرا
وزين مجلس الأنس
بزهر الخد محمرا
وألق الشمس في كأسي
شعاعا منك أو تبرا
فشمعة ليلنا ذابت
وحسنك يظهر الفجرا
فراشة قلبنا طافت
بشعرك يضرم الجمرا

---

(١) وحيد الدين بهاء الدين : شخصيات من الأدب المعاصر ، ص ١٦٠ و١٦١ و١٦٢ (حلب ١٩٧٠) .

(٢) حسن وعشق ، ص ٢٣٣ (القاهرة ١٩٦٣) ورده وبلبل ، ص ٥ (القاهرة ١٩٥٨) ، همسة ونسمة ، ص ١٨٠ (القاهرة ١٩٦٤) .

قوامك سـروة مالت
وهزت عطفهـا سـكرا
أفى الجنـات قد كانت
ترشف ماءهـا خمـرا
أعـد ماضى لياليـنـا
ربيعـا عاد مخضـرا
فكأسـك تلك تحيينـا
غمـاما يسكب القطرا
لقبـاء الروح يدنينـا
فكن إيران أو مصـرا

وموضع النظر فى هذه الأبيات المنتخبة من تلك القصيدة أن الشاعر آخذ عن الشعر الفارسى مختاراً أو مضطراً ، فاذا اختار فلأنه يعرض الغرض من نظمه للقصيدة فى الصورة التى توائمها[1] وإن اضطر فلأن عكوفه على دراسة الشعر الفارسى أعواما أربعين أو ما يقرب يدفعه دفعاً إلى أن يكون متأثرا بما درس وهذا رأى متفق عليه ، فمن لايتأثر بما يقرأ ، يؤكد أنه لم يفهمه ولم يستوعبه ولا أفاد منه .

وأول ما يقال فى هـذا الصدد ، أنه كان على ذكر من أول غزل فى ديوان الشاعر الفارسى حافظ الشيرازى ، وهو من بحر الهزج والشطر الأول منه بالعربية وهو (ألا يا أيها الساقى أدر كأسا وناولها) .

كما ذكر شعر الحبيب ، وما تغزل شعراء الفرس فى شىء من محاسن المرأة ما تغزلوا فى شعرها ، وكان ذلك دأبا لهم كما كان الوقوف على الأطلال دأبا لشعراء العرب[2] .

أما أن يميل الحبيب عليه برأسه ليسر فى اذنه سرا ، فمما استلهمه من قول

(١) أنظر مجلة الإخاء الإيرانية ، ص ١١ عدد ٢٠٧ السنة الثانية عشرة نوفمبر ١٩٧١ .
(٢) د. حسين مجيب المصرى : فارسيات وتركيات ، ص ٣٦ (القاهرة ١٩٤٨) .

حافظ فى غزل له رقيق أنيق (ومال على أذنى ، وقال بصوت عميق الحزن . يا عاشق منذ طويل زماناً ، نت الآن وسنان[١]).

والعطر فى شعر الفرس الصوفى رمز إلى نشوة العشق الإلهى . وشرب الخمر وهو ضد الدين ، إشارة إلى التمذهب بالتصوف[٢] والصوفية يذكرون الخمرة فى عباراتهم بأسمائها وأوصافها ويريدون بها ما أدار الله تعالى على ألبابهم من المعرفة أو من الشوق[٣] ولا يكاد يخلو شعر فارسى من ذكر للفراشة والشمعة فالفراشة قلب العاشق الذى يهوى فى نار العشق الإلهى . وقد ألف شعراء الفرس تشبيه القوام الممشوق بشجرة السرو ، على حين شبهه العرب بالبان . والمرأة فى الشعر الفارسى طيف خيال على نقيض المشاهد فى الشعر العربى .

ومحصل القول فى هذا كله أن الشاعر يبذل طوقه فى إعلان تأثره بالشعر الفارسى إعلانا . وكأنه يريد أن تكون له الريادة فى لون جديد من الشعر العربى .

وله ديوان فارسى لم يطبع وإن نشرت بعض المجلات الإيرانية طائفة من شعره كمنظومة بعنوان « لقاء إيران » وهذه أبيات فى خاتمتها :

منذ أعوام أربعين وأنت فى فكرى
ماثلة وفى شعرى
وها قد انطوى عمرى
ولكن البقاء لما علا بحبك من قدرى
والخلود ثم الخلود لذكرى
أيها البلبل الغرّيد إلىّ زف البشرى
فقد أصبح الذابل ناضرا مخضرا

---

(١) سر فرا گوش من آورد با آواز حزين
گفت اى عاشق ديرينهٔ من خوابت هست

(2) Singh : The Spirit of Oriental Poetry. p. 36 (London 1926).

(٣) النابلسى والبورينى : شرح ديوان فالارض ، ص ٢٠٤ (القاهرة ١٢٧٩ هـ) .

ولكن أين أنا الآن منك
وقد ثملت من عطر غدائرك
وها هى ذى يدى فى يدك
والعهود أؤكدها لك
فانقشع عنى ماتكبدت من أجلك
أيها البلبل الغرّيد إلى زف البشرى
فقد أصبح الذابل ناضرا مخضرا
عينى رأتك عينى رأتك
أين كنت وأين كانت غيبتك
شد ما برّحت بى فرقتك
وإذا ما افترقت بالموت عنك
ليتنى أسلمت الروح بين ذراعيك
أيها البلبل الغرّيد إلى زف البشرى
فقد أصبح الذابل ناضرا مخضرا[1]

(١) چهل سال است در فكرم
كه تو بودى ودر شعرم
واينك طى شده عمرم
ولى باقى است اين مهرم
وجاويد است آن ذكرم
هزار داستان بده مژده كه خرم گشته پژمرده
ولى الآن كجا هستم
زعطر زلف تومستم
ودست توكه در دستم
وباتو عهدها بستم
زغم وزدردها رستم
هزار داستان بده مژده كه خرم گشته پژمرده

وهذا كله مضافا إلى ما أسلفنا ذكره يوطد صلة أدبية بين إيران ومصر ويوضح معالمها في أتم جلاء .

ومما يرتبط فيه إيران ومصر، شخصيه تفردت جوانبها إلى الحد الذى جعل منها من لايجود الزمان بمثلها إلا فى الندرة .

فقد اجتمع فيها المصلح الديني والسياسى والاجتماعى إلى جانب رجـــل الفـكر الحر والأدب العالى والرائد المجاهد فى الحق المـكافح للباطل . تلك هى شخصية جمال الدين الأفغانى .

وهو داع عظيم إلى التجديد فى الإسلام ، وكان دائب العمل فى مصر خصوصاً ولمدة مديدة ، واسع النفوذ عميق الأثر ، محققا لأمنية العالم الإسلامى الذى ينبنى على أساس من القرآن ركين . كان على حق فى دعوته إلى الرجوع إلى القرآن، بعد أن فترت هِمم المسلمين عن الأخذ بتعاليمه التى تشحذ الهمم وتحرر العقول ، وتأبى للمسلمين أن يكونوا جامدين خامدين[١] .

وقد احتدم الجدال فى جنسيته وتضاربت الأقوال ، فدارسوه من المصريين يأبون إلا أن يكون أفغانيا ، وذاكروه من الإيرانيين يسوقون الأدلة على أنه كان إيرانياً . فعند الرافعى أن بعض المتشككين أو المغرضين يزعمونه إيرانياً . وهذا زعم مختلق منهم لأنه قال « لقد جمعت ما تفرق من الفـكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان ، وهى أول أرض مس جسمى ترابها. » كما قال « إنى اضطررت لترك بلادى الأفغـان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض»[٢] .

وقال محمود أبورية إن جنسيته لا توجب أدنى شك ، ولا يشك فيها إلا

= ترا ديـــــدم ترادیـــــدم
كجـا بـودی كجـا بـودم
فــــراق تـــوكه بـود دردم
وكاشـكه من اگر مـردم
در آغـوش تـوجان كنـــدم
هزار داستان بده مژده كه خرم گشته پژمرده

(1) Schimmel: Buch der Ewigkeit· s. 14 (München 1959).

(٢) عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الأفغانى، ص ٥ (القاهرة ١٩٦١) .

ناطق عن الهوى . وينزه جمال الدين الأفغانى عن أن يكون إيرانياً شيعياً كما جاء فى كتاب عنه أخرجه إيرانى يسمى لطف الله خان ويزعم أنه ابن شقيقته . ثم طرح أبوريه هذين السؤالين وهما إذا صح أنه إيرانى فلماذا خذله الأئمة الإيرانيون يوم أمر الشاه ناصر الدين بتكبيله بالأصفاد والمضى به من قرية إلى قرية للتشهير به وإذلاله . والسؤال الثانى عن السبب الذى منع السلطان عبدالحميد من تسليمه إلى إيران فى عداد من سلم من الإيرانيين(١) .

وذكر الشيخ محمد عبده فى رسالته « الرد على الدهريين » وهى رسالة لجمال الدين الأفغانى ترجمها عن الفارسية ، أنه أفغانى من قرية تسمى « اسعد آباد » قريبة من كابل ، وأيد هذا الأمير شكيب أرسلان الذى قال إنه التقى بوال أفغانى أخبره بأن السيد منهم ، واتفقت على ذلك كلمة كل من التقى بهم من رجال الدولة الأفغانية(٢) .

وهذا ما ينتهى إلى مقطع من القول متفق عليه عند جميع الباحثين غير الإيرانيين . وإذا نظرنا فى كلام الإيرانيين رأينا صاحب كتاب « رجال الشرق المشاهير» يسميه جمال الدين اسد آبادى ويبادر إلى التحفظ فيجعل تحت اسمه عنوانا آخر هو « المعروف بالأفغانى» ، وعنده أن السيد من مواليد اسد آباد وهى قصبة بالقرب من مدينة همذان بإيران . ثم يقول المؤلف إن اعتباره أفغانيا خطأ تكرر ؛ وذلك لأن قائلا وقع فيه ونقل عنه غيره . ويروى أن سائلا إيرانيا سأل جمال الدين عن اسمه وتعجب كيف يتسمى بالأفغانى فرد عليه بقوله إنه يتخلص فى شعره بالأفغانى. والتخلص أو المخلص اسم أدبى مستعار يذكره شعراء الفرس فى أشعارهم . كما يذكر أن السيد لم يرض نسبته إلى إيران ولا تبعيته لها لأنه ما كان يثق فى حمايتها له . ويذيل الكاتب كلامه بدعوته كل من يتشكك فى صحة هذا إلى أن يتصل بمن فى اسد آباد من ذوى قربى جمال الدين الأفغانى .

ومن علماء الإيرانيين من أعلن العجز عن القطع برأى فى جنسيته ، وإن أكد صلته وصلة أسرته باسد آباد همذان ، إلا أنه تساءل لماذا اعتبر نفسه من

---

(١) محمود أبو رية : صيحة جمال الدين الأفغانى، ص ١٥ (القاهرة) .

(٢) فرحزاذ : مردان نامى شرق ، ص ١٨٣ (بيروت ١٩٣٠) .

أهل أفغانستان وسادات كابل ، ثم ذكر أن سبب ذلك غير معـــلوم وقد تتكشف الأيام عن أنه ربما ارتحل عن أفغانستان وطاب له المقام فى اسد آباد [١] .

أما المستشرق براون فيرى أنه فضّل اعتباره أفغانياً على اعتباره إيرانياً ، لسببين: أولهما أن يراه المسلمون من أهل السنة ، والثانى أن يتنصل من حماية الحكومة الإيرانية له وهى حماية لا ثقة له بها [٢] .

ولزام أن نضيف إلى ذلك أنه تسمى كذلك بالحسينى والاستنبولى والحسينى الطوسى [٣] وقمين بالذكر أن السيد لم يتخلص فى شعره بالأفغانى كما روى عنه بعضهم ، لأننا باطلاعنا على شعره الفارسى وجدناه يتخلص بالرومى .

وهذا كله قد يبدو معسّرا لادراك الحقيقة لاميسّرا ، ولكننا إذا قلبنا الأمر على وجوهه ، عرفنا أنه يبدد الظلمات عن تلك الحقيقة . فأن يتسمى بالطوسى يجعله منسوباً إلى إيران ، وأن يقال له الاستنبولى لا يدل على أنه تركى ، وتخلصه بالرومى لا ينهض دليلا على شىء . وهذا ما يشكك فى جدية انتسابه إلى الأفغانى . وإن كان لا يؤيد صحة نسبه إلى بلد آخر .

ولجمال الدين نزعة صوفية تبدو فى شعره الفارسى ، فليس بمستبعد أن يكون قد ذهب مذهبهم فى عدم التفرقة بين الأوطان والأجناس ، كما أنه بذل ما بذل من جهد وطوى ما طوى من عمر فى جمع كلمة المسلمين أجمعين والدعوة إلى وحدتهم . وها هو ذا شاعر باكستان محمد إقبال فى كتابه « جاويدنامه » أى كتاب الخلود يجرى على لسان جمال الدين قوله [٣] :

---

(١) افشار : مجموعهٔ اسناد ومدارك چاب نشده دربارهٔ سيد جمال الدين . مقدمه (تهران ١٣٤٢) .

(2) Browne: The Persian Revolution. pp. 3,4 (Cambridge 1910).

(٣) افشار : مجموعهٔ اسناد ومدارك چاب نشده دربارهٔ سيد جمال الدين ، ص ١٥٨ .

(٤) لرد مغرب آن سراپا مكروفن — اهل دين را داد تعليم وطن
او بفكر مركز وتو در نفاق — بگذر از شام وفلسطين وعراق
تو اگر دارى تميز خوب وزشت — دل نه بندى با كلوخ وسنك وخشت

لورد الغرب وهو فى الخداع يفتن
لقن أهـــل الدين معنى الوطن
إنه على نية تسلطه وأنت فى النفـــاق
فـــدع عنك الشام وفلسطين والعراق
لو مـــيزت الخبيث من الطيب
لمـــا هوى إلى حجر ولبنة منك القلب

والذى عندنا أن هذا يصح فى الفهم سبباً لاختياره أن يشتهر بالأفغانى ، وهو أرجح من السبب الذى ذكره المستشرق براون متظنناً ، ونضيف إليه أسباباً اخرى .

أولها أن قرية « اسعد آباد » فى بلاد الأفغان ينطقها الإيرانيون « اسد آباد» مما يجعل اسمها مساوياً فى النطق تمام المساواة لأسد آباد فى إيران . وقد يكون هذا مما جعل التمييز بين أصل الاسمين مشكلا .

والثانى ما يقال من أن السيد فى عام ١٨٨٩ التقى فى مدينة ميونخ بألمانيا بالشاه ناصر الدين شاه إيران . وقد أقنعه بأن يصحبه إلى إيران ليتبوأ فيها منصب رئيس الوزراء . وتلك هى المرة الثانية التى يدعوه فيها الشاه إلى إيران ، فلقد استدعاه من قبل عام ١٨٨٦ استدعاء عاجلا ، واستقبل استقبالا عظيما ليكون وزيرا للحربية ، فأصبح صاحب حظوة عند الشاه ومنزلة عند خواص الناس وعوامهم فى إيران[1] .

وهذا من تدبير شاه إيران ، دافع إلى الاعتقاد أنه اختار رجلا من أبناء وطنه .

ويجرى هذا المجرى ما يروى من حديث الإمام محمد عبده عنه حين طرد من مصر . فهو القائل إنه اقتيد بالعنف واركب القطار ، ولقيه فى طريقه قنصل إيران وجماعة من المصريين الأحرار ، وعرضوا عليه مالا ، إلا أن نفسه عفت عنه وقال : إن الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب[2] .

---

(1) Adams: Islam and Modernism in Egypt, p. 10 (London 1933).

(٢) صلاح البستانى : العروة الوثقى ، ص ٣٢ (القاهرة ١٩٥٧) .

ونحن لانقود الظن حيث لا موجب للظن ، لأن التاريخ يقول إن الآريين الأقدمين انشعبوا شعبتين عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ، فرحلت إحداهما إلى الهند لتستقر فيها ، ومضت الأخرى غرباً حتى بلغت آسيا الصغرى . ونزح من سكن منهم مرتفعات أفغانستان بعد ألف عام إلى إيران ، وأسسوا تلك الدولة الإيرانية التى عرفت فى التاريخ بالدولة الهخامنشية[١] .

وهذا ما يشير إلى أن الإيرانيين والأفغان من جنس واحد ، والفرق بين هؤلاء وأولئك فرق اعتبارى لا جوهرى . وحقيق بالذكر أن من يؤرخون الأدب الأفغانى لا يفرقون بينه وبين الأدب الفارسى ، ولا نكاد نلمح فرقا فى أسماء العصـــور ولا أسماء الأدباء ، وهو ما نلاحظه فى تاريخ موجز للأدب الأفغانى[٢] .

وذلك باعث آخر يبعثنا على القول بأن الأفغانى يشابه الإيرانى تمام المشابهة حتى كأنهما إنسان واحد ، فلا وجه لشدة التعصب والتصلب الذى رأيناه لدى بعضهم فى البحث عن الحجج والبينات ، لدفع ما يسمونه المفتريات والأباطيل والأضاليل لأن الأمر أهون مما تمس فيه الحاجة إلى مثل هذا .

كما أنه يذكرنا باختلاف الباحثين فى الشاعر التركى القديم فضولى البغدادى . فعند بعضهم أنه من أصل كردى ، وعند غيره أنه ليس بتركى ولا آذرى تركى ، وإنما آذرى كردى أى منتسب إلى إحدى القبائل الإيرانية[٣] على حين اعتبره الروس تابعاً لهم واحتفلوا بمرور أربعمائة عام على وفاته ، لأن لغته هى التركية الآذرية ، أى لغة إقليم أذربيجان وهو اليوم يتبعهم . ومن عجب أن هذا الشاعر لم يزايل العراق ، ومعـــدود من شعرائه الذين عاشوا فى العصر العثمانى وهم إثناعشر شاعرا[١] مع أنه أمير الشعر التركى القديم .

---

(١) يعقوب حسن خان : نگاهى بتاريخ قديم افغانستان ، ص ١٤٦ ، سالنامهٔ كابل (كابل ١٣١٤) .

(٢) محمد كريم خان نزيهى : تاريخ ادبيات افغانستان ، ص ١٨٩ — ٢٢٨ ، سالنامهٔ كابل (كابل ١٣١٤) .

(٣) د. حسين مجيب المصرى : فى الأدب الإسلامى ، ص ١٩٥ (القاهرة ١٩٦٧) .

(٤) عباس عراوى : تاريخ الأدب العربى فى العراق ، ص ٢٦٣ ، ج ٢ (بغداد ١٩٦٢)

ولا يفوتنا فى هذا المقام قولنا إن ما أسلفنا ليس استطراداً ولا من نافلة القول ، بل إنه تمهيد لا مندوحة عنه قبل الدخول على لب لباب موضوعنا . وهو اعتبار السيد جمال الدين الأفغانى وصلة بين إيران ومصر ، لأننا أميل إلى عدّه من الإيرانيين ، بعد أن توفر لدينا من الأدلة ما أرجح الكفة الإيرانية فى ميزان عقلنا . وهذا اجتهاد بالرأى وتحقيق للتاريخ ورفع للشبهات ، ولن يكون ذا صلة بعظمة ذلك العظيم من قريب ولا بعيد .

وكان لمقام هذا العبقرى زمناً فى مصر أثر أى أثر ، لأنه أيقظ الهمم وغير المفاهيم وحرك فى الأفكار جديداً أحله محل القديم ، وذلك من صنيعه أثمر ثمرته المرجوة فى كثير من مناحى الحياة المصرية ، وبدا يقظة واعية بعد سبات طال عليه الأمد .

فالسيد جمال الدين باعث النهضة الفكرية فى مصر ، وكان العلماء من قبل لا يتجاوزون فى تفكيرهم نطاقا ضيقا ، ولا يبحثون على المنهج الأمثل ، ولا يازمون أنفسهم بالانطلاق الحر فى التفكير والتعبير ، الذى يتحقق به الوصول إلى المنشود من الغايات . ولما انعقدت الأسباب بين جمال الدين وجماعة من قادة الفكر والرأى المصريين ، لقنهم ما لقنهم من مبادئه وأصول منهجه القويم ، وداوم هؤلاء على الجلوس منه مجلس التلميذ ، فتأتى لهذا الشيخ أن يكون صاحب مدرسة بالمعنى الأخص الأدق . وفى الإلماع إلى ذلك يقول القائل عن الشيخ محمد عبده إنه مضى إليه مع زميل له ولم يمض على مقدمه إلى مصر طويل زمان ، فوجداه على طعام العشاء ، وسرعان ما سألهما عن بعض آيات القرآن وقول الصوفية والمفسرين فيها ، ثم فسرها لهما تفسيرا ملك على الشيخ محمد عبده إعجابه به وملأ قلبه حباً له . ثم قرأ الشيخ على جمال الدين كثيراً من كتب التصوف والفلسفة والمنطق . كما أرشد جمال الدين كغيره من تلامذته وأصفيائه إلى أصول الإنشاء وكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية ودربهم على الخطابة حتى برع فيها محمد عبده وبرّز فيها على أستاذه ، فما صفت عبارة جمال الدين من العجمة على رصانتها ومتانتها . وكان محمد عبده يحرص أشد الحرص على حضور

مجالس جمال الدين فى ناديه وسامره ، وكانت مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة[١] .

وها هو ذا حافظ إبراهيم يشيد بفضل جمال الدين على تلاميذه من كتاب الطليعة فى مصر بقوله إن جمال الدين علمهم كيف يبتدعون وكانوا من قبل يتبعون ، وبواسطتهم دبت الحياة فى اللغة العربية ، التى عهدنا بكتابها يدينون باللفظ ويكفرون بالمعنى . فجمال الدين من جعلهم يبصرون نوراً للهداية وهذا ما خرج بهم من ظلمات العصور الوسطى[٢] .

وحسب جمال الدين فضلا أن يكون الشيخ محمدعبده خريجه ، وهو من روّاد الثورة المصرية، وسجن ونفى مع العرابيين وكان ضد سياسة الاحتلال ومطامع الخديو كما كشف اللثام عن مساوىء حكم محمد على[٣] .

وكان جمال الدين يجمع حوله مريديه والمعجبين به من العلماء والفضلاء ليلقى عليهم تعاليمه ويأخذ بأطراف الحديث معهم فى أفانين المعرفة ، غير أنه رأى أن يخاطب الجماهير كذلك تعميما للفائدة ، فألقى الكلام على المصريين من غير الخواص بكيفية تلائمهم وأسلوب على قدر عقولهم ، ليوقظ شعورهم ويحرك أفكارهم[٤] .

وهو القائل موجهاً خطابه إلى الفلاح « عجبت لك أيها الفلاح تشق الأرض بفأسك باحثاً عن رزقك ، لماذا لاتشق بهذا الفأس صدور ظالميك ؟ » وقال فى دعوة المصريين إلى تذكر مجدهم فى غابر الدهور ليأبوا الضيم والمذلة فى حاضرهم ويعقدوا العزم على السير فى الطريق التى تفضى بهم إلى حياة أكرم وأفضل ، ليلحقوا بركب الأحرار بعد أن تخلفوا عن غيرهم ممن لم يكن لهم من المجد مثل مجدهم « انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام، ص ٢٦، ج ١ (القاهرة ١٩٣١).

(٢) حافظ إبراهيم : ليالى سطيح، ص ٣٨ (القاهرة ١٩٦٤).

(٣) د. عثمان أمين، الإمام محمد عبده ، ص ٢٧و٢٨ (القاهرة ١٩٦٥).

(٤) سعيد الأفغانى : السيد جمال الدين الأفغانى، ص ٣٨ (القاهرة ١٩٦٧) .

وحصون دمياط، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم. هبّوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء».

وتتلمذ له سعد زغلول خمس سنوات، فتلقى عنه آراءه الحرة، ولا غرو فجمال الدين الأفغانى أعظم فيلسوف فى الشرق الحديث، وما كان متعصباً ولا متزمتا، ويعد رسول الحقيقة والتقدم، وهو أول من رفع صوته بجهارة ليقول إن تعاليم الإسلام لاتتعارض فى شيء مع أصول الحضارة والتطور إلى ما هو أفضل[1] ويلزم من هذا أن يكون الزعيم سعد زغلول قد تأثر بشيخه فى عمق وتلقن من آرائه ومبادئه ونزعاته ما أهّله لزعامته السياسية التى ذهب له بها صيت وذكر.

وما كان إليه مرجع الفضل فى تخريج العلماء والزعماء وحسب، بل رأى أن يغير نظام الحكم تغييرا يلائم مبادىء الحرية ويستأصل شأفة الجور. فتقدم إلى عاهل البلاد آنئذ وهو الخديو توفيق، ليبصره بمواقع الرشد وعواقب الأمر، ويشير عليه بما هو أحمد فى العقبى. وكان الخديو قال له إن الكثرة الغالبة من شعب مصر من الجاهلين الخاملين، ولا يصلح أن يلقى عليهم من الدروس والأقوال ما يهيج خواطرهم مخافة أن يلقوا بأنفسهم وبلادهم إلى التهلكة. فكان من رد جمال الدين عليه ما نصه «ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لايخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به إلى سموكم. وإن قبلتم نصح هذا المخلص لأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين، وتنفذ باسمكم وبإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم[2].

---

(1) Yeghen: Saad Zaghloul. pp· 29,30 (Paris 1927)

(٢) محمود أبو رية : صيحة جمال الدين الأفغانى ، ص ٣١ (القاهرة) .

ونحن لو بسطنا الكلام فى جمال الدين، لتشعبت بنا شجونه فما بلغنا فيه غاية قريبة ، ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، وجملة القول أن هذا العبقرى الإيرانى الذى خرّج الأساطين من الزعماء والساسة وغيّر مجرى الفكر والشعور، يعتبر باعث النهضة التى انبثقت بالمزاوجة بين فكره الآرى الإيرانى والفكر السامى المصرى ، وعليه فهو الوصلة بين إيران ومصر، والعروة الوثقى .

مصادر البحث

المصادر الشرقية :

* ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٣٠)
* ابن خلكان : وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨)
* ابن الأثير : أسد الغابة (القاهرة ١٩٧١)
* ابن منظور : ابو نواس (القاهرة ١٩٢٤)
* احمد كمال زاده : ديوان عائشة التيمورية (القاهرة ١٩٥٢)
* افشار: مجموعه اسناد ومدارك چاپ نشده درباره سيد جمال الدين (تهران ١٣٤٢)
* الجاحظ : التاج (القاهرة ١٩١٤)
* الطبرى : تاريخ الطبرى (القاهرة ١٩٣٩)
* القلقشندى : صبح الأعشى (القاهرة)
* المنجى الكعبى: الدولة الفارسية الأولى فى الإسلام ، الفكر، دراسات إيرانية (تونس ١٩٧١)
* المسعودى : مروج الذهب (القاهرة ١٢٤٦)
* النابلسى والبورينى : شرح ديوان الفارض (القاهرة ١٢٧٩)
* پيرنيا : ايران باستان (طهران)
* حافظ إبراهيم : ليالى سطيح (القاهرة ١٩٦٤)
* د . حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر (القاهرة ١٩٣١)
* د . حسين مجيب المصرى : فى الأدب الاسلامى (القاهرة ١٩٦٧)
* د . حسين مجيب المصرى : فى الأدب العربى والتركى (القاهرة ١٩٦٢)
* د . حسين مجيب المصرى : حسن وعشق (القاهرة ١٩٦٣)
* د . حسين مجيب المصرى : وردة وبلبل (القاهرة ١٩٥٨)
* د . حسين مجيب المصرى : همسة ونسمة (القاهرة ١٩٦٤)

* د . حسين مجيب المصري: صلات بين العرب والفرس والترك (القاهرة ١٩٧١).
* د . حسين مجيب المصري : فارسيات وتركيات (القاهرة ١٩٤٨) .
* خير الدين الزركلي : الأعلام (القاهرة ١٩٢٨) .
* دولتشاه: تذكرة الشعرا (بمبى)
* د . ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران (تهران ١٣٣٩) .
* رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام (القاهرة ١٩٣١) .
* د . زكى حسن: كنوز الفاطميين (القاهرة ١٩٣٢) .
* سعدى : كليات سعدى (بمبى ١٣٥٥) .
* سعدى : گلستان (ايران ١٣١٠).
* سعيد الأفغانى : السيد جمال الدين الأفغانى (القاهرة ١٩٦٧) .
* صلاح البستانى : العروة الوثقى (القاهرة ١٩٥٧)
* عباس عزاوى : تاريخ الأدب العربى فى العراق (بغداد ١٩٦٢) .
* عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الأفغانى (القاهرة ١٩٦١) .
* د . عبد العزيز الأهوانى : ابن سناء الملك (القاهرة ١٩٦٢) .
* عبد الله رازى : تاريخ ايران (طهران ١٣١٧)
* د . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر (القاهرة ١٩٥٥) .
* د . عثمان أمين : الإمام محمد عبده (القاهرة ١٩٦٥) .
* عطار : تذكرة الأوليا (ليدن) .
* غنى زاده : سفرنامهٔ حكيم ناصر خسرو (برلين ١٣٤٠).
* فرخزاد : مردان نامى شرق (بيروت ١٩٣٠) .
* د . قاسم غنى : تاريخ تصوف دراسلام (طهران ١٣٢٢) .
* الكندى : ولاة مصر (بيروت ١٩٥٩) .
* مالى (ت) سروش : حيات سعدى (ايران ١٣١٦) .
* متز (ت) أبوريدة : الحضارة الإسلامية (القاهرة ١٩٥٧) .
* د . محمد صبرى : أدب وتاريخ واجتماع (القاهرة ١٩٥٠) .

* محمد کریم خان نزیهی: تاریخ ادبیات افغانستان ، سالنامهٔ کابل(کابل ١٣١٤)
* محمد مقبل بیك : الدر الثمین فی أسماء البنات والبنین (القاهرة ١٢٩٤) .
* محمود أبو رية : صيحة جمال الدين الأفغانى (القاهرة) .
* د . معین : مزدیسنا و تأثیرات آن در ادبیات فارسی (تهران ١٣٢٦) .
* همائی : تاریخ ادبیات ایران (تهران ١٣٤٠) .
* وحيد الدين بهاء الدين : شخصيات من الأدب المعاصر (حلب ١٩٧٠) .
* یعقوب حسن خان : نگاهی بتاریخ قـــدیم افغانستان . سالنامهٔ کابل (کابل ١٣١٤) .

المصادر الاوربية

Adams : Islam and Modernism in Egypt (Cairo, 1933).

Arberry : Iraqi : Mystic Poet of Iran (London, 1939).

Browne : The Persian Revolution (Cambridge, 1920).

Christensen : L'Empire des Sassanides (Kobenhavn, 1907).

Elgood : A Medical History of Persia (Cambridge, 1953).

Erdmann : Die Kunst zur Zeit der Sasaniden(Berlin, NCMXLIII)

Farrokh (T) Saremi History of the Books and the Imperial Libraries of Iran (Tehran, 1968).

Gardiner : Egypt of the Pharaohs (Oxford, 1961).

Guest : Relations between Persia and Egypt, A Volume of Oriental Studies (Cambridge, 1922).

Haas : Iran (Oxford, 1946).

Hachtmann : Europaïsche Kultureinflüsse in der Türkei (Berlin, 1918).

Huart : La Perse Antique (Paris, 1925).

Ikbal Ali Shah : Islamic Sufism (London, 1933).

Iliffe : Persia and the Ancient World, The Legacy of Persia (Oxford, 1955).

Inostrantsev : Torjestvennye Viyezd Fatimidskih Khalifov (Petersbourg, 1905).

Kratchkovsky : Izbrannye Sotchinenya (Moskva, 1995).

Le Bon : Premières Civilisations (Paris).

Massé : Essai Sur le Poète Saadi (Paris, 1919).

Nicholson : Studies in Islamic Mysticism (Cambridge, 1921).

Nouri : Iran's Contribution to the World Civilization (Tehran, 1971).

Olmstead : History of the Persian Empire (Chicago, 1948).

Posener : La Première Domination Perse en Egypte (Le Caire, 1939).

Schimmel : Buch der Ewigkeit (München, 1959).

Singh : The Spirit of Oriental Poetry (London, 1959).

Sykes : History of Persia (London, 1930).

Yeghen : Saad Zaghloul (Paris, 1927).

* * *

ظهر للمؤلف

فارسيات وتركيات	١٩٤٨
من أدب الفرس والترك	١٩٥٠
تاريخ الأدب التركى	١٩٥١
شمعة وفراشة (شعر)	١٩٥٥
وردة وبلبل (شعر)	١٩٥٨
فى الأدب العربى والتركى ، دراسة فى الأدب الإسلامى المقارن	١٩٦٢
حسن وعشق (شعر)	١٩٦٣
همسة ونسمة (شعر)	١٩٦٤
رمضان فى الشعر العربى والفارسى والتركى ، دراسة فى الأدب الإسلامى المقارن	١٩٦٥
فى الأدب الاسلامى ، فضولى البغدادى أمير الشعر التركى القديم	١٩٦٧
صلات بين العرب والفرس والترك ، دراسة تاريخية أدبية	١٩٧٠
إيران ومصر عبر التاريخ	١٩٧٢

يظهر له

الصحابى الجليل سلمان الفارسى ، عند العرب والفرس والترك .

كتاب الخلود لمحمد إقبال : ترجمة منظومة عن الفارسية .

ثلاث شاعرات : دراسة فى الأدب الإسلامى المقارن .

شوق وذكرى (شعر) .

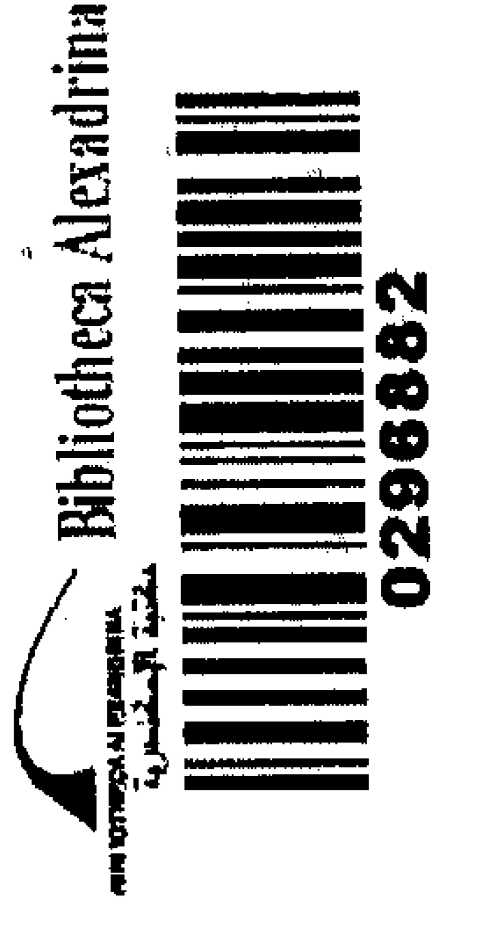
فى الأدب العربى والفارسى : دراسة فى الأدب الإسلامى المقارن .

الوطنية فى الشعر العربى والفـــارسى والتركى : دراسة فى الأدب الإسلامى المقارن .

الإنكشارية .

رقم الإيداع ٤٢١٠ لسنة ١٩٧٢


مكتبة الأنجلو المصرية


Bibliotheca Alexadrina
0296882